مِرآةُ العِرفانِ ولُبُّه

شرح رسالة

مَن عَرَفَ نفسَهُ فقد عَرَفَ رَبَّه

المتن

للشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن عربي قدس سره

والشرح

للعارف بالله تعالى الشيخ

أحمد بن سليمان الأروادي النقشبندي الأكبري

المتوفى 1275 هـ



ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي



مرآة العرفان ولبه

شرح رسالة

من عرف نفسه فقد عرف ربه

المتن

للشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن عربي قدس سره

والشرح

للعارف بالله تعالى الشيخ
أحمد بن سليمان الأروادي النقشبندي الأكبري
المتوفى 1275 هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي



BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون

Author : *Al-Sheikh Ahmad ben Sulaiman Al-Arwadi (D 1275H.)*

المؤلف : الشيخ أحمد بن سليمان الأروادي (ت ١٢٧٥هـ)

Editor : *Dr. Assam Ibrahim Al-Kayyali*

المحقق : الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

Classification : *Sufism*

التصنيف : تصوف

Year : *1436 H. - 2015 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

Pages : *96*

عدد الصفحات : ٩٦

Size : *17 x 24 cm*

القياس : ٢٤ x ١٧ cm

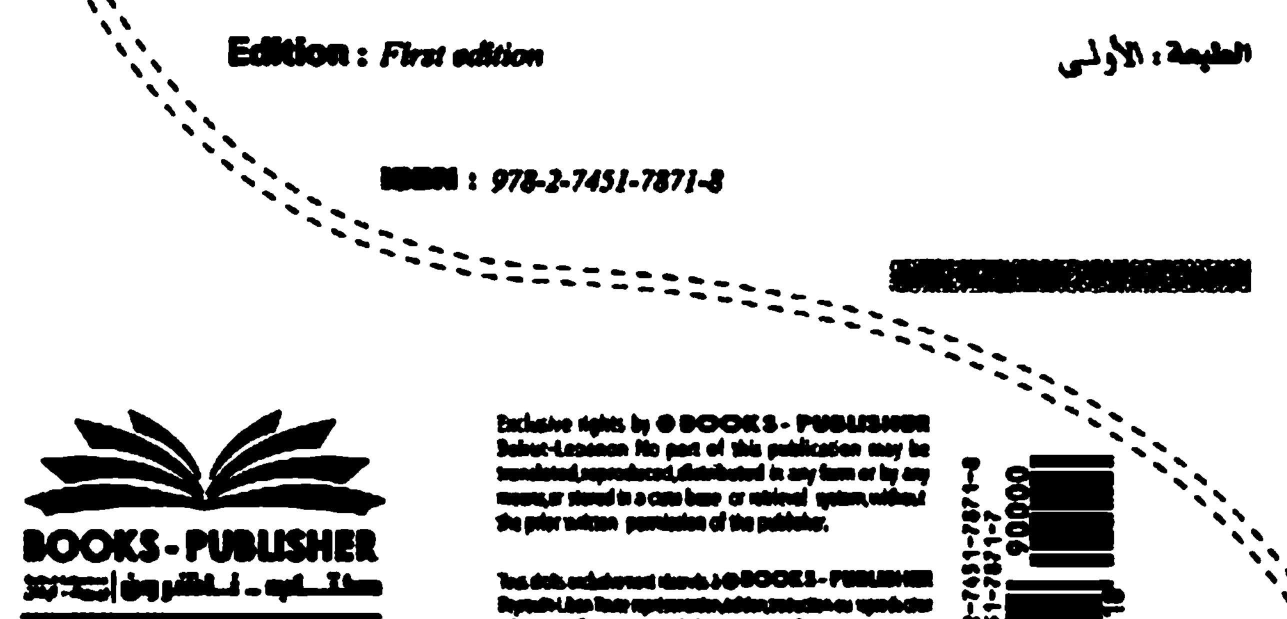
Printed in : *Lebanon*

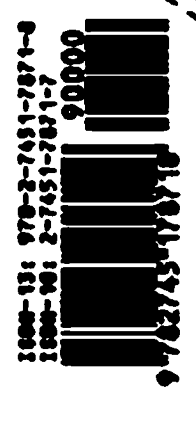
بلد الطباعة : لبنان

Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : 978-2-7451-7871-8





BOOKS - PUBLISHER

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street, Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon

Tel: [illegible]

E-mail: books.publisher@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمٰن الرَّحيم القائل سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: الآية 21] ، والحمد لله تعالى القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: الآية 53] .

والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على سيِّدنا محمد النبيّ الأمّي سيد ولد آدم القائل: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

وبعد:

فمعلوم أن الإنسان خلق في هذا الكون ليعرف الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية 56] أي (ليعرفون)، ويكون الحق تعالى عبَّر عن الغاية التي هي المعرفة بالوسيلة التي هي العبادة، فالفرائض والواجبات والسنن والنوافل كلها وسائل للعبد المكلف يتقرّب بها إلى الله تعالى وتساعده في التعرُّف على الله تعالى ذاتاً وصفة وفعلاً.

وإضافة إلى تطبيق الأحكام الشرعية لا بدَّ من تهذيب النفس بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: الآية 53] ، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: الآيتان 9- 10] .

فإن معرفة النفس هي من الوسائل المقرّبة لمعرفة الربّ تعالى كما ورد في الأثر.

وفي هذا الإطار نقدِّم للقرَّاء الكرام كتاب «مرآة العرفان ولبّه شرح رسالة: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» المتن للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، والشرح للشيخ العارف بالله تعالى أحمد الأحمدي النقشبندي الخالدي الأكبري الأروادي ابن سليمان المتوفى سنة 1275 هجرية.

ولا بد من الإشارة أن كتب التصوف الإسلامي تساعد المُريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمر بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: الآية 99].

كـل ذلـك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علـوم وأسرار مقامـات الدين الثـلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقـة والحقيقة؛ المُلْك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أسرار ما تعبَّدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية 21].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآيات 3-4].

وقـولـه تـعـالـى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: الآية 69]، لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم

في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيتان 22 - 23].

كتبه الشيخ الدكتور

عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشارح الشيخ أحمد الأروادي النقشبندي(*)

هو الشيخ المحدّث السند أحمد بن سليمان الأروادي النقشبندي الخالدي (توفي عام 1275 هجرية ـ 1858 ميلادية).

علّامة، لوذعي، مؤرخ، وصوفي كبير، من كبار علماء طرابلس، أصله من جزيرة أرواد. يعد من رجال الإسناد والحديث في عصره.

أخذ العلم عن صاحب الحاشية السيد محمد أمين ابن عابدين، ودرس على السيد العلّامة المحدّث حامد بن أحمد بن عبيد العطار، والمحدّث الشيخ عبد الرحمٰن الكزبري، وعلى الشيخ خالد النقشبندي العثماني، فتلقى عنه الطريقة النقشبندية وأضحى من أجلّة تلامذته وكبار خلفائه.

وأخذ أيضاً عن الشيخ أحمد الخلوتي النقشبندي الصاوي، وأخذ الطريقة الأكبرية على الشيخ علي حكشة، ودرس أيضاً على السيد حسين بن سليم الدجاني مفتي يافا، والشيخ أحمد التميمي الخليلي مفتي الديار المصرية، والسيد عبد الرحمٰن بن حسن الكواكبي مفتي حلب، والشيخ عمر الفيضي، والشيخ مصطفى بن عبد الكريم البدري، والشيخ علي النجاري، والشيخ محمد الفضالي المصري، والشيخ إبراهيم الباجوري، والشيخ عبد الرحمٰن المنصوري، والشيخ مصطفى البولاقي، والشيخ مصطفى المبلط الأحمدي، والشيخ أحمد الطموس، والشيخ حسن البلتاني، والشيخ عبد الرحمٰن الأشموني، والشيخ محمد الرومي النقشبندي، والشيخ علي الوفائي، والشيخ

(*) ترجم له صاحب الأعلام (الجزء الأول) وأخذت هذه الترجمة أيضاً من مخطوط ثبت الأروادي العقد الفريد الموجود عند بعض أحفاد السيد أمين الأتاسي.

خالد الصعيدي، والشيخ عمر البغدادي، والمحدِّث منصور اليافي المصري، والمحدِّث الطحطاوي المسري وغيرهم.

وتفرَّغ للتدريس والعلم ونشر الطريق، فأخذ عنه الكثير من كبار علماء الأمة، منهم السيد محمد أمين الأتاسي، وعلَّامة الشام السيد بكري بن حامد بن أحمد العطار، والشيخ المحدِّث الحسن بن عبد الله القسطموني، والشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي، والشيخ أحمد بن مصطفى العمري مفتي العساكر العثمانية، والشيخ إبراهيم بن مراد الحموي، والشيخ محيي الدين الحبش، والشيخ عبد الفتاح العبد، وغيرهم.

له ما يربو على مائة وعشرين مؤلف ورسالة، منها: التاريخ الكبير، وألفية في علم الأدب، ومفرجة الكروب بالصلاة على النبيّ المحب المحبوب، ومنظومة في أسماء الله الحسنى، والتبر المسبوك في نهاية السلوك في علم التصوف، ومرآة العرفان ولبّه شرح رسالة مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والنور المظهر في طريقة سيدي الشيخ الأكبر، والعقد الفريد في علو الأسانيد، وهو ثبته.

توفي بطرابلس ودفن بمقبرة جامع الدباء.

ترجمة الشارح الشيخ أحمد الأروادي كما جاءت في كتاب فهرس الفهارس للكتاني(*)

هو الشيخ أحمد بن سليمان الأروادي الطرابلسي، مسند طرابلس الشام في أواخر القرن المنصرم، وشيخ الطريقة النقشبندية بها، وهو من أكبر خلفاء مولانا خالد النقشبندي دفين دمشق.

يروي عن ابن عابدين، والوجيه الكزبري، والبرهان الباجوري، والبولاقي، وحسن الدجاني، وأحمد التميمي، وتلك الطبقة.

وله التصانيف التي تجاوزت المائة، كتاريخ كبير، وألفية في علوم الأدب، والتبر المسبوك في نهاية السلوك، ورسالة في الطريقة الحاتمية. وله ثبت أرويه وكل ما له عن الشيخ أبي النصر الخطيب الدمشقي، ومحمد سليم المسوتي الدمشقي كلاهما عنه عالياً.

وأروي عن محمد بن عبد الرحيم النشابي الطندتائي، ومحمد بن سالم طموم المنوفي عن أحمد بن مصطفى الكمشخانوي نزيل الأستانة عن الأروادي المذكور، فإنه شيخه رواية وطريقة، وقد أجاز الأروادي المذكور لأهل عصره عامة وذلك 9 صفر سنة 1272 وكانت وفاته في طرابلس الشام في حدود سنة 75 بعد المائتين وألف.

(*) من كتاب فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات للشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني.

ترجمة الماتن الشيخ الأكبر
محيي الدين محمد بن عربي
الحاتمي(*)

نسبه:

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم من قبيلة طيّ مهد النبوغ والتفوق العقلي في جاهليّتها وإسلامها. يكنى أبا بكر ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي لدى أهل المشرق تفريقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

مولده ونشاته:

ولد في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية الموافق 28 يولية سنة ألف ومائة وخمس وستين ميلادية في مدينة «مرسية» بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية. وكان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقيّة ورعة نقيّة من جميع الشوائب الشائبة. وهكذا درج محيي الدين في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان، وفيه عزمات لرجال أقوياء ينشدون نصراً وفوزاً في محاريب الهدى والطاعة.

(*) مقتبسة من بحث للدكتور محمد غلاب بعنوان «المعرفة عند محيي الدين بن عربي» ضمن «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1969 م.

وانتقل والده إلى إشبيلية، وحاكمها إذ ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس، وفيها شب محيي الدين ودرج. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب «الكافي»، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً في القراءات ملهماً في المعاني والإشارات. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه، يذكرهم لنا الإمام شمس الدين بن مسدي في روايته عن محيي الدين فيقول واصفاً متحدثاً عن أساتذته الأول: «كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق، والتقدم الذي لا يسبق، سمع في بلاده في شبابه الباكر من ابن زرقون، والحافظ ابن الجد، وأبي الوليد الحضرمي، الشيخ أبي الحسن بن نصر». ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً ذا بال عن شباب محيي الدين، ولا عن شيوخه، ومقدار ما حصل من العلوم والفنون؛ وإنما هو يحدثنا أنه مرض في شبابه مرضاً شديداً. وفي أثناء شدة الحمى رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به. وبغتة رأى شخصاً جميلاً قوياً مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرّقها شذر مذر، ولم يبق منها أي أثر، فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له: أنا سورة يس.

وعلى أثر هذا استيقظ فرأى والده جالساً إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثم لم يلبث أن برىء من مرضه، وألقي في روعه أنه معدّ للحياة الروحية، وآمن بوجود سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

وفي طليعة هذا الشباب المزهر بفضل ثروة أسرته تزوج بفتاة تعتبر مثالاً في الكمال الروحي والجمال الظاهري وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها.

وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سراً مذهب الأمبيذوقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات والموروثة عن الفيثاغورية والأورفيوسية والفطرية الهندية. وكانت هذه المدرسة هي الوحيدة

التي تدرس لتلاميذها المبادىء الخفية والتعاليم الرمزية منذ عهد ابن مسرة المتوفى بقرطبة في سنة 319 هـ ـ 931 م والذي لم يعرف المستشرقون مؤلفاته إلاَّ عن طريق محيي الدين. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف المتوفى في سنة 1141 م فلم يره محيي الدين، ولكنه تتلمذ على منتجاته وعلى رواية تلميذه المباشر وصديق محيي الدين الوفي أبي عبد الله الغزال.

ومما لا ريب فيه أن استعداده الفطري ونشأته في هذه البيئة التقية، واختلافه إلى تلك المدرسة الرمزية، كل ذلك قد تضافر على إبراز هذه الناحية الروحية عنده في سن مبكرة وعلى صورة ناصعة لا تتيسر للكثيرين ممن تشوب حياتهم الأولى شوائب الغرائز والنزوات. فلم يكد يختم الحلقة الثانية من عمره حتى كان قد انغمس في أنوار الكشف والإلهام، ولم يشارف العشرين حتى أعلن أنه جعل يسير في الطريق الروحاني بخطوات واسعة ثابتة، وأنه بدأ يطلع على أسرار الحياة الصوفية، وأن عدداً من الخفايا الكونية قد تكشف أمامه، وأن حياته منذ ذلك العهد المبكر لم تعد سوى سلسلة من البحث المتواصل عما يحقق الكمال لتلك الاستعدادات الفطرية التي تنير أضواؤها جوانب عقله وقلبه. ولم يزل عاكفاً على ذلك النشاط الروحاني حتى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار. ولم تكن آماله في التغلغل إلى تلك الأسرار وبحوثه عن وسائلها الضرورية تقف عند حد، لأنه أيقن منذ نعومة أظفاره بأنه مؤمن بمبادىء عقيدة حقيقية أزلية مرت بجميع الأزمان الكونية، وطافت بكل الأجناس البشرية متممة ما فيها من نقص وقصور، وأنها جمعت كل الروحانيات في الوحدة الفطرية التي تتمثل من حين إلى آخر في صور تنسكية رفيعة تبدو على مسرح الإنسانية ردحاً من الزمن ثم تختفي، ولا يدرك حقيقتها إلا القليلون.

وأكثر من ذلك أنه حين كان لا يزال في قرطبة قد تكشف له من أقطاب العصور البائدة عدد من حكماء فارس والإغريق كفيثاغورس، وأمبيذوقليس، وأفلاطون ومن إليهم ممن ألقيت على كواهلهم مسؤولية القطبية الروحية في عصورهم المتعاقبة قبل ظهور الإسلام. وهذا هو السبب في أنه قد شغف بأن

يطلع على جميع الدرجات التنسكية في كل الأديان والمذاهب عن طريق أرواح رجالها الحقيقيين بهيئة مباشرة، وبصورة مؤسسة على الشرف العلمي الذي يحمل الباحث النزيه على الاعتماد عليه دون أدنى تردد أو ارتياب.

غير أن هذه السكينة الروحانية التي بدأت لدى هذا الشاب مبكرة والتي كانت ثمارها فيما بعد تتمثل في تلك المعرفة التي أشرنا إليها آنفاً، لم تدم طويلاً على حالة واحدة، إذ أنه لم يلبث أن تبين أول الأمر بالإلهام، ثم عن طريق الكشف الجلي أنه لم يعد له بدّ ـ في تلك البيئة المغربية إذ ذاك ـ من أحد أمرين: إما أن يجاري التيار العام الذي كان يحدق به إحداق السوار بالمعصم، وهو أن يتقيد في جميع أفكاره وتعقلاته وأحاسيسه ومشاعره وحركاته وسكناته بحرفية الدين التي لا روح فيها ولا حياة ولا سرّ ولا رمز ولا تأويل، وبهذا تختفي شخصيته الحقيقية وتفشل رسالته الطبيعية، وهذا شيء لا يستطيعه بأي حال، وإما أن يسير على فطرته وحسب تكوين عقله وقلبه فيصطدم في كل خطوة من خطواته من أهل الحل والعقد في البلاد. وقد حدث ذلك فعلاً حيث احتدمت بينه وبين بعض الأمراء الموحدين مجادلات عنيفة، وحيكت حوله دسائس قوية اتهمته بإحداث اضطراب في سياسة الدولة.

وإذ ذاك رأى في حالة اليقظة أنه أمام العرش الإلٰهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر، ورأى طائراً بديع الصنع يحلق حول العرش ويصدر إليه الأمر بأن يرتحل إلى الشرق وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي، وبأن رفيقاً من البشر يدعى فلاناً ينتظره في مدينة فاس، وأن هذا الأخير قد أمر هو أيضاً بهذه الرحلة إلى الشرق، ولكنه يجب ألا يرتحل قبل أن يجيء إليه رفيق من الأندلس، فيفعل ما أمر به ويرتحل بصحبة هذا الرفيق.

وفيما بين سنتي 597، 620 هـ 1200، 1223 م يبدأ رحلاته الطويلة المتعددة إلى بلاد الشرق فيتجه في سنة 1201 م إلى مكة فيستقبله فيها شيخ إيراني وقور جليل عريق المحتد ممتاز في العقل والعلم والخلق والصلاح. وفي هذه الأسرة التقية يلتقي بفتاة تدعى «نظاما» وهي ابنة ذلك الشيخ، وقد حبتها

السماء بنصيب موفور من المحاسن الجسميّة، والميزات الروحانية الفائقة، فاتخذ منها محيي الدين رمزاً ظاهرياً للحكمة الخالدة، وأنشأ في تصوير هذه الرموز قصائد سجلها في ديوان ألفه في ذلك الحين.

وفي هذه البيئة النقية المختارة له من قبل سطعت مواهبه العقلية والروحية، وتركزت حياته الصوفية، وجعلت تصعد في معارج القدس شيئاً فشيئاً حتى بلغت شأواً عظيماً. ومن ذلك أنه في إحدى طوفاته التأملية والبدنية بالكعبة يلتقي من جديد بمرشده السماوي الذي أمره سالفاً بالهجرة من الأندلس والمغرب إلى الأصقاع الشرقية، فيتلقى منه الأمر أيضاً بتأليف كتابه الجامع الخالد «الفتوحات المكية» الذي ضمنه أكثر وأهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه الروحية، والذي لا يتطاول إلى قمته في عصره أي كتاب آخر فيما نعلم من إنتاج هذا الصنف من المتنسكين.

وفي سنة 1204 م يرتحل إلى الموصل حيث تجتذبه تعاليم الصوفي الكبير علي بن عبد الله بن جامع الذي تلقى لبس الخرقة عن الخضر مباشرة، ثم ألبس محيي الدين إياها بدوره.

وفي سنة 1206 م نلتقي به في القاهرة مع فريق من الصوفية الذي يطبقون حياة تنسكية قوية محافظة. وهنا يظهر له رائد سماوي يأمره بإدخال شيء من الكمال على مذهبه، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يتنمر له عدد من الفقهاء يحيكون حوله وحول أصحابه شباكاً من الدسائس تهدّد اطمئنانهم بل حياتهم، ولولا نفود أحد أصدقائه لوقع في ذلك الخطر، ولكنه لحسن حظه يستطيع أن ينجو بنفسه ويفر إلى مكة في سنة 1207 م فيلتقي فيها بأصدقائه القدماء الأوفياء، ويقيم بينهم في هدوء وسكينة نحو ثلاثة أعوام، ثم يرتحل إلى قونية بتركيا حيث يتلقاه أميرها السلجوقي باحتفال بهيج.

وهناك يتزوج بوالدة صدر الدين القونيوي، وهو أحد تلاميذه المفضلين ثم لا يلبث أن يرتحل إلى أرمينيا، ومنها إلى شاطىء الفرات.

وفي سنة 1211 م نلتقي به في بغداد حيث يتصل بالصوفي المعروف شهاب الدين عمر السهروردي.

وفي سنة 1214 م يعود إلى مكة ولا يكاد يستقر فيها حتى يجد أن عدداً من فقهائها المنافقين الدساسين قد جعلوا يشوهون سمعته ويرمونه بأن قصائده التي نشرها في ديوانه الرمزي منذ ثلاثة عشر عاماً كانت تصور غرامه المادي الواقعي بالفتاة «نظام» ابنة صديقه الشيخ الإيراني التي أشرنا آنفاً إلى أنه اتخذ منها رمزاً نقياً للحكمة الخالدة. وعندما تبيّن هذه التهمة الرخيصة وعرف مصادرها الحقيقية حمل عليها وعلى واضعيها حملة قوية كشفت زيفها للجميع بصورة جعلت القائمين بها يعترفون بأخطائهم ويعتذرون إليه عنها.

وبعد ذلك يرتحل إلى حلب فيقيم بها ردحاً من الزمن معززاً مكرماً من أميرها. وأخيراً يلقي عصا التسيار في دمشق في سنة 1223 م حيث كان أميرها أحد تلاميذه المؤمنين بعلمه ونقائه ويظل بها يؤلف ويعلم، ويخرج التلاميذ والمريدين يحوطه الهدوء وتحف به السكينة حتى يتوفى بها في 28 ربيع الثاني من سنة 638 هـ الموافق 16 نوفمبر من سنة 1240 م.

مؤلفاته وشيوخه(*)

قال الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه «جامع كرامات الأولياء» ضمن ترجمته للشيخ ابن عربي:

وقد اطلعت له على إجازة أجاز بها الملك المظفر ابن الملك العادل الأيوبي، ذكر فيها كثيراً من مشايخه ومؤلفاته، ولتمام الفائدة أذكرها هنا بحروفها فأقول: قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه نستعين: أقول وأنا محمد بن عليّ بن العربي الطائي الأندلسي الحاتمي، وهذا لفظي: استخرت الله تعالى، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي، ابن الملك العادل المرحوم إن شاء الله تعالى أبي بكر بن أيوب وأولاده، ولمن أدرك حياتي الرواية عني في جميع ما رويته عن أشياخي، من قراءة وسماع ومناولة وكتاب وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم، وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تعبيري هذا الخط، وذلك في غرة محرم سنة 632 بمحروسة دمشق وكان قد سألني في استدعائه أن أذكر من أسماء شيوخي ما يتسر لي ذكره منهم، وبعض مسموعاتي، وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه نفعه الله تعالى بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله، إنه وليّ كريم.

فمن شيوخنا أبو بكر بن أخلف اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبع بكتاب الكافي لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني عن ابن المؤلف.

(*) انظر جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهاني (ج 1 ص 163 ـ 169).

ومن شيوخنا في القراءة أبو الحسن شريح بن محمد بن محمد بن شريح الرعيني، عن أبيه المؤلف.

ومن شيوخنا في القرآن أيضاً أبو القاسم عبد الرحمٰن بن غالب الشراط، من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور وحدثني أيضاً عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح عن أبيه المؤلف محمد بن شريح المقري.

ومن شيوخنا القاضي أبو محمد عبد الله البازلي قاضي مدينة فاس، حدثني بكتاب «التبصرة في مذاهب القراء السبعة» لأبي محمد مكي المقري عن أبي بحر سفيان ابن القاضي، عن المؤلف بجمع تآليف مكي أيضاً، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي حمزة، سمعت عليه كتاب التيسير في مذاهب القراء السبعة لأبي عمرو عثمان بن أبي سعيد الداني المقري، حدثني به عن أبيه عن المؤلف ويجميع تآليف الداني وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن دربون، سمعت عليه كتاب البقعي لأبي عمر يوسف بن عبد البر النميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر ابن المؤلف ويجميع تآليفه مثل الاستذكار، والتمهيد، والاستيعاب، والانتقاء، وأجاز لي إجازة عامة في الروايتين، أجاز لي أن أرويه عنه وجميع تآليفه.

ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الإشبيلي، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المبتدي، والأحكام الصغرى والوسطى والكبرى، وكتاب العاقة ونظمه ونثره، وحدثني الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح، عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني، سمعت عليه صحيح مسلم حدثني به عن الفراوي عن عبد الغفار الجلودي، عن إبراهيم المروزي عن مسلم، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا يونس بن يحيى أبي الحسن العباسي الهاشمي، نزل مكة سمعت عليه كتباً كثيرة في الحديث والرقائق، منها كتاب صحيح البخاري.

ومن شيوخنا المكيين أبو شجاع زاهد بن رستم الأصفهاني إمام المقام بالحرم، سمعت عليه كتاب الترمذي لأبي عيسى، حدثني به عن الكرخي عن الخزاعي المحبوبي عن الترمذي، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا البرهان نصر بن أبي الفتوح بن عمر الحصري إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف، سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داود السجستاني، حدثني بها، عن أبي جعفر بن عليّ بن السمناني، عن أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري، عن أبي علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داود، وأجاز لي إجازة عامة. وحدثني بكتب ابن ثابت الخطيب عن أبي جعفر السمناني.

ومن شيوخنا سالم بن رزق الله الإفريقي، سمعت عليه كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، حدثني به عنه وبجميع مصنفاته وتآليفه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا محمد أبو الوليد بن أحمد بن محمد بن سبيل، قرأت عليه كثيراً من تآليفه، وناولني كتاب «نهاية المجتهد وكفاية المقتصد» والأحكام الشريفة من تأليفه.

ومن شيوخنا أبو عبد الله بن العزي الفاخري، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو سعيد عبد الله بن عمر بن أحمد بن منصور الصفا، حدثني بكتب الواحدي كتابة عبد الجبار محمد بن أحمد الحواري عنه.

ومن شيوخنا أبو الوابل بن العربي، سمعت عليه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي ابن عمه، حدثني به عنه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبان، حدثني بكتب ابن خميس عنه.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد البكري، سمعت عليه رسالة القشيري، وحدثني بها عن أبي الأسعد عبد الرحمٰن بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، عن جده عبد الكريم، المؤلف، وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد، أجازني إجازة عامة، وأخذ عني وأخذت عنه، وسمعت عليه بمدينة باب السلام بحضور ابنه عبد الرزاق.

ومنهم: أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر السلفي الأصبهاني، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمرو بن شريح الرعيني المقري، أجازني وكتب إليّ أن أروي عنه كتب عبد الرحمٰن السلمي، وحدثني عن محمد نصار البيهقي عنه.

ومنهم: جابر بن أيوب الحضرمي، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري.

وممن أجازني إجازة عامة محمد بن إسماعيل بن محمد القزويني، والحافظ الكبير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

ومنهم: أبو القاسم خلف بن بشكوال.

ومنهم: القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي.

ومنهم: يوسف بن الحسن بن أبي النقاب بن الحسين وأخوه أبو العباس أيضاً، وأجازنا أبو القاسم ذاكر بن كامل بن غالب.

ومنهم: محمد بن يوسف بن علي الغزنوي الخفّاف.

ومنهم: أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسن بن عمر بن أحمد القرشي المياستي.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي الحافظ، كتب إليّ بالرواية عنه بجميع تآليفه ونظمه ونثره وسمى لنا من كتبه «صفوة الصفوة» و«مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن». وغير ذلك.

ومنهم: أبو بكر بن أبي الفتح الشيخاني.

ومنهم: المبارك بن علي بن الحسين الطباخ.

ومنهم: عبد الرحمٰن ابن الأستاذ، المعروف بابن علوان.

ومنهم: عبد الجليل الزنجاني.

ومنهم: أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن شداد الموصلي.

ومنهم: أحمد بن أبي منصور.

ومنهم: محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهب بن جامع بن عبدون البغدادي الصوفي يعرف بابن الثناء.

ومنهم: محمد بن أبي بكر الطوسي.

ومنهم: المهذب بن علي بن هبة الله الطيب الضرير.

ومنهم: ركن الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب، وأخوه شمس الدين أبو عبد الله.

ومنهم: القرماني ببغداد.

ومنهم: ثابت بن قرة الحاوي، قرأت عليه من كتبه وتآليفه، ووقفها برواياتها بمسجد العمادين الجلادين بالموصل.

ومنهم: عبد العزيز بن الأخضر.

ومنهم: أبو عمر عثمان بن أبي يعلى بن أبي عمر الأبهري الشافعي من أولاد البراء بن عازب.

ومنهم: سعيد بن محمد بن أبي المعالي.

ومنهم: عبد الحميد بن محمد بن علي بن أبي المرشد القزويني.

ومنهم: أبو النجيب القزويني.

ومنهم: محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الكريم الفاسي، قرأت عليه جميع مصنفاته.

ومنهم: أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسين الرازي.

ومنهم: أحمد بن منصور الجوزي.

ومنهم: أبو محمد بن إسحاق بن يوسف بن علي.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحجري.

ومنهم: أبو الصبر أيوب بن أحمد المقري.

ومنهم: أبو بكر محمد بن عبيد السكسكي.

ومنهم: ابن مالك، حدثني بمقامات الحريري عن مصنفها.

ومنهم: عبد الودود بن سمحون قاضي النبك.

ومنهم: عبد المنعم بن القرشي الخزرجي.

ومنهم: علي بن عبد الواحد بن جامع.

ومنهم: أبو جعفر بن يحيى الورعي.

ومنهم: ابن هذيل.

ومنهم: أبو زيد السهيلي، حدثني بالروض الأنف في شرح السيرة والمعارف والأعلام وجميع تآليفه.

ومنهم: أبو عبيد الله بن الفخار المالقي المحدث.

ومنهم: أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري.

ومنهم: عبد الجليل مؤلف المشكل في الحديث وشعب الإيمان.

ومنهم: أبو عبد الله بن المجاهد.

ومنهم: أبو عمران موسى بن عمران المزيلي.

ومنهم: الحاج محمد بن علي ابن أخت أبي الربيع المقومي.

ومنهم: عليّ بن النضر. ولولا خوف الملال وضيق الوقت لذكرنا جميع من سمعنا عليه ولقيناه.

وها أنا أذكر من تآليفي ما تيسّر فإنها كثيرة، وأصغرها جرماً كراسة واحدة، وأكبرها ما يزيد على مائة مجلد وما بينهما.

فمن ذلك كتاب المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث. اختصار مسلم. اختصار البخاري. اختصار الترمذي، اختصار المحلى. الاحتفال فيما كان عليه رسول الله ﷺ من سني الأحوال.

وأما الحقائق في طريق الله تعالى التي هي نتائج الأعمال، فمن ذلك وهو السابع كتاب من تصانيفنا «الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل» أفرغ في أربعة وستين مجلداً إلى قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ [الكهف: 60]. الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة. مفتاح السعادة في معرفة الدخول إلى طريق الإرادة. المثلثات الواردة في القرآن العظيم. الأجوبة عن المسائل المنصورة. متابعة القطب. مناهج الارتقا إلى افتضاض أبكار النقا بجنان اللقا، يحوي ثلاثة آلاف مقام في طريق الله تعالى على ثلاثمائة باب، كل باب عشرة مقامات، كنه ما لا بد للمريد منه. المحكم في المحكم وأذان رسول الله ﷺ. الخلاف في آداب الملإ الأعلى. كشف الغين: سرّ أسماء الله الحسنى. شفاء العليل في إيضاح السبيل. عقلة المستوفز جلاء القلوب. التحقيق في الكشف عن سرّ الصديق. الإعلام بإشارات أهل الأوهام والإفهام في شرحه. السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج. المنتخب في مآثر العرب. نتائج الأفكار وحدائق الأزهار. الميزان في حقيقة الإنسان. المحجة البيضاء. كنز الأبرار فيما روي عن النبي ﷺ من الأدعية والأذكار. مكافأة الأنوار فيما روي عن النبي ﷺ عن الله تعالى من الأخبار. الأربعين المتقابلة الأحاديث الأربعين في الطول. العين. التدبيرات الإلٰهية في إصلاح المحاكمة الإنسانية تعشق النفس بالجسم. إنزال الغيوب على سائر القلوب. أسرار قلوب العارفين. مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية. الخلاء. المنهج

السديد في شرح أنس المنقطعين. الموعظة الحسنة. البغية. الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به طريق الآخرة من إنسان وحيوان ونبات ومعدن. المبادي والغايات فيما في حروف المعجم من الآيات. مواقع النجوم. الإنزالات. الموجود. حلية الأبدال. أنوار الفجر. الفتوحات المكية عشرون مجلداً. تاج التراجم. الفحوص. الرصوص. الشواهد. القطب والإمامين. روح القدس. التنزلات الموصلية. إشارات القرآن في العالم والإنسان. القسم الإلٰهي. الأقسام الإلٰهية. الجمال والجلال. المقنع في إيضاح السهل الممتنع. شروط أهل الطريق. الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار. عنقاء مغرب. عقائد أهل علم الكلام. الإيجاد والكون. الرسائل والإشارات في الأسرار. الإلٰهيات والكتابات. الحجة. إنشاء الجداول والدوائر. الأعلاق في مكارم الأخلاق. روضة العاشقين. الميم والواو والنون. المعارف الإلٰهية وهو الديوان. المبشرات. الرحلة. العوالي في أسانيد الأحاديث. الأحدية. الهوية الرحمية. الجامع وهو كتاب الجلالة العظيمة. المجد. الديمومة. الجود. القيومية. الإحسان. الفلك والسعادة. الحكمة. العزة. الأزل. النون. الإبداع. الخلق والأمر. القدم. الصادر والوارد. الملك. الوارد والواردات. القدس. الحياة. العلم. المشتبه. الفهوانية. الرقم. العين. المياه. ركن المدائن. المبادي. الزلفة. الرقيم. الدعاء. الأجابة. الرمز. الرتبة. البقاء. القدرة. الحكم والشرائع. الغيب. مفاتيح الغيب الخزائن العلمية. الرياح اللواقح. الريح العقيم. الكنز. التدبير والتفصيل. اللذة والألم. الحق. الحمد. المؤمن والمسلم والمحسن. القدر. الشأن. الوجود. التحويل. الوحي. الإنسان. التركيب. المعراج. الروائح والأنفاس. الملل. الأرواح. النحل، البرزخ. الحسن. القسطاس. القلم. اللوح. التحفة والعرافة. المعرفة. الأعراف. زيادة كبد النون. الإسفار في نتائج الأسفار. الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة. الجبال. الطبق. النمل. العرش. مراتب الكشف. الأبيض. الكرسي. الفلك المشحون. الهباء. الجسم. الزمان. المكان. الحركة. العالم. الأباء العلويات والأمهات السفليات. النجم

والشجر. سجود القلب. الرسالة والنبوة والمعرفة والولاية. الغايات التسعة عشر. الجنة. النار. الحضرة. المناظرة بين الإنسان الكامل. التفضيل بين الملك والبشر. المبشرات الكبرى. محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. الأولين. العبادة. ما يعول عليه وهو كتاب النصائح. إيجاز اللسان في الترجمة عن القرآن. المعرفة. شرح الأسماء. الذخائر والأعلاق. الوسائل. النكاح المطلق. فصوص الحكم. نائج الأذكار. اختصار السيرة النبوية المحمدية. اللوامح. اللوائح. الاسم والرسم. الفصل والوصل. مراتب العلوم. الوهب. انتقاش النور. النحل. الوجد. الطالب والمجذوب. الأدب. الحال. الشريعة والحقيقة. التحكم والشطح. الحق. المخلوق. الإفراد وذوو الأعداد. الملامية. الخوف والرجاء. الفيض والبسط. الهبة والأنس. اللسانين. التواصي الليلية. الفناء والبقاء. الغيبة والحضور. الصحو والسكر. التجليات. القرب والبعد. المحو والإثبات. الخواطر. الشاهد والمشاهد. الكشف. الولد. التجريد والتفريد. العزة والاجتهاد. اللطائف والعوارف. الرياضة والتجلي. المحق والسحق. التودد والهجوم. التلوين والتمكين. اللمة والهمة. العزة والغيرة. الفتوح والمطالعات. الوقائع. الحرف المعني. التدني والتدلي. الرجعة. الستر والخلوة. النون. الختم والطبع. انتهت، ولعزتها ذكرتها هنا فإنها من أعظم كراماته رضي الله عنه، فلم أخرج بذكرها عن الصدد الذي ألف الكتاب لأجله، وقد رأيت كتاباً مستقلاً في ذكر مؤلفاته وفيه كثير منها لم يذكر هنا في هذه الإجازة، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة 638.

مرآة العرفان ولبّه
شرح رسالة «مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه»

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن أرسل رسله بالتوحيد واصطفاهم، وجعل المصطفى رسولاً إليهم وإلى نصرته والإيمان به دعاهم، وأيّد دينه بخلفاء من أمته عاملين بعلومه وشريعته، فهم الوارثون له جيلاً بعد جيل، إلى حضرة الشيخ الأكبر النبيل، ففتح أقفال المخبآت وأظهر علوم الوراثة لذوي الولايات، وأخفاها عن غير أهلها بالرموز والإشارات، فوقف بساحل بحارها كل عالِم نحرير، وغاص في لجّتها لإخراج لألئها كل شخص يستمد بمدده وبنوره يستنير، فهو صاحب العلم الصحيح، والكشف الصريح، فقد كشف أستار العرفان، وجال في ميادين حوادث الزمان، وأخبر عن أمور تحدث في المستقبل، فجاءت كما قال من غير زيادة ولا نقصان. ومن جملتها أخبر عن وجود ملوك آل عثمان، ومدحهم بالكناية والتصريح، وأشار إلى مدة كل واحد منهم، ووزير صدارته بالرمز والتلويح، فدلّ مدحه لهم على حسن سيرتهم وصدقهم مع الله تعالى بظاهرهم وسريرتهم، لأن من جملة قواعدهم الأولية تطبيق أحكامهم على الأوامر الشرعية، وتعظيم الآثار النبوية، فأوجب الحال بفعلهم لتخليد ملكهم.

واستمروا على هذه القواعد والأمر المفيد، المتمّم إلى ظهور حضرة السلطان الأعظم، سلطان سلاطين العرب والعجم، مولانا الملك الفريد، السلطان عبد المجيد، أدام الله تعالى أيام دولته بالعدل والأمن والأمان، وصرف عنه قرناء السوء مدى الزمان، ووفّق وزراءه وعُمّاله للعدل وفعل الخيرات، بفضل سيّدنا محمد المصطفى سيّد السادات صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأصحابه ما دامت الأرض والسماوات.

وبعد، فيقول العبد الفقير إلى الملك الديّان، أحمد الأحمدي النقشبندي، الخالدي الأكبري، ابن سليمان ستر الله تعالى له كل عيب وغفر له عن كل ذنب

وريب: قد سألني في دار الخلافة العليّة، جعلها الله تعالى سالمة من كل آفة وبليّة، أوحد الفضلاء وأسعد الوزراء والنبلاء حضرة ويسي باشا بلّغه الله تعالى من الخيرات ما يشاء، أن أشرح رسالة «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» للقطب العارف صاحب اللطائف والمعارف، سيدي الشيخ محيي الدين بن العربي، ذي العلم الوهبي قدّس الله تعالى روحه ونوّر جسده وضريحه، فاستخرت ربّ الأرباب، فحصل الجواب بالإيجاب، فبدأت فيه مستمداً من فيض فضل عالم الروحانية، وسمّيته «مرآة العرفان ولبّه شرح رسالة من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

فقلت: قال الشيخ الخاشع في حضرة الفتّاح الكريم (بسم الله الرحمٰن الرحيم) ابتدأ بالبسملة لأنها مفتاح كل كتاب، وثنى بالحمدلة شكراً لربّ الأرباب فقال: (الحَمْدُ لله الذي لم يكُن قبلَ وحْدانيَّته قَبْلٌ) القبل ضد البعد أي فلا أول لوجوده (إلّا) بفتحتين أداة استفتاح، والقَبْلُ هو أخذاً من قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [الحديد: الآية 3].

(ولَمْ يكُنْ) أي لم يوجد (بعد فردانيَّتِهِ) أي وحدته في ذاته وصفاته وأفعاله (بعْدٌ) ألا والبُعْدُ هو أخذاً من قوله: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: الآية 3] كان الله موجوداً (ولا قَبْلَ مَعَهُ) يوصف بالقبلية (ولا بَعْدَ مَعَهُ) يوصف بالبعدية (ولا قُرْبَ) يوصف بالأقربية (ولا بُعْدَ) بضم الباء وسكون العين ضدّ القرب، أي يوصف بالأبعديّة.

(ولا كَيْفَ) هو اسم مبهم غير متمكن يستفهم فيه عن الأحوال (ولا أيْنَ) هو سؤال عن الزمان، فنفاهما حيث لا أحوال ولا زمان (ولا حِيْنَ ولا أوانَ، ولا وَقْتَ ولا زَمَانَ، ولا فَوْقَ) معه موجود (ولا تَحتَ) يوصف بالحدود (ولا كَوْنَ) أي ولا موجود معه بل هو الموجود (ولا مَكَانَ) من الأمكنة (وَهُوَ الآنَ كمَا كَانَ) لقول سيِّد الأكوان «إنَّ الله كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»[1].

---

(1) صحّ بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء...» الحديث، رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، حديث رقم (3019) [3/ 1166] أما فيما يخص عبارة [وهو الآن على ما عليه كان] فهي من كلام العارفين بالله تعالى.

(هُوَ الوَاحِدُ بِلا وِحْدَانِيَّةٍ) أي المنفرد بالذات باعتبار انتفاء من يعدّد الصفات والأسماء والنسب والتَعَيُّنات قبل الخلق (وَهُوَ الفَرْدُ بِلا فَرْدَانِيَّةٍ) أي المنفرد كذلك قبل وجود من يصفه بها (لَيْسَ مُرَكَّباً مِنَ الاسْمِ والمُسَمَّى) فلو كان مركباً لكان حادثاً تنزَّه عن ذلك، بل نطلق الاسم ونريد المسمى (فَإِنَّ اسْمَهُ هُوَ ومُسَمَّاهُ هُوَ) أي ذاته العليّة أخذاً من قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: الآية 110] الآية، (فَلا اسْمَ غَيْرَهُ) أي بل هو الاسم، هذا ما جرى عليه المحققون وهو أن الاسم عين المسمّى لئلا يلزم كفر من قال لا إله إلا الله محمّد رسول الله، إذا كان الاسم غير المسمّى فيكون أقرَّ بالوحدانية لغير الذات المقدّسة، وبالرسالة لغير الذات المطهَّرة، وتوقف بعض العلماء لأن السلف لم يتكلموا في الاسم والمسمّى ولا في الصفة والموصوف، ولا في التلاوة والمتلوّ لأن ذلك محل مزالّ الأقدام، وحذراً على الغير من الوقوع في الضلال.

وفصّل بعض العلماء الأعلام فجعل الأسماء الشريفة أربعة أقسام: **أسماء الذات** وهي التي يقال هي هو، **وأسماء الصفات** وهي التي لا يقال هي هو ولا هي غيره، **والأسماء التنزيهية** وهي ما دلّت على التقديس المطلق كالقدُّوس ونحوه، **وأسماء الأفعال** وهي ما دلّت التسمية به على فعل كالخلق والرزق.

ونظر في ذلك بعض المحققين بأن المغايرة في ما منه الاشتقاق لا في الاسم، فإنه عين المسمّى، فلو كان غيره للزم كفر من قال: لا إله إلا الخالق، فتعيّن أن ليس الاسم غيره.

(ولا غَيْرُهُ) أي ولا غير الاسم باعتبار أن الموجودات ثلاثة: ذات الله تعالى، وصفاته، وصفات صفاته، وهي مخلوقاته، فإن القدرة تقتضي إيجاد مقدور والعلم يقتضي إيجاد معلوم، ونحو ذلك من صفات الواحد الأول، فإنها لا تتعطل، وهذا المحل يحتاج فيه إلى كشف أسرار المحبين الموحّدين، فإنهم لشدّة ما يرد على طور قلب كل واحد منهم من أشعة بارقات أنوار رفيع الدرجات فيندهش ولا يطيق كتم ذلك، فإنَّ مَن أحبَّ شيئاً أكثر مِنْ ذِكْره، ولا

يكون محبّاً حتى يكون محبوباً كما قال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية 54] فحبّه سابق لحب أحبابه المكرمين رضي الله عنهم أجمعين.

فإذا وردت الواردات تكلّم بها العارف بصريح العبارات فينكر عليه صاحب الغفلات، فمثلهما كالأعمى والبصير، فإن الأعمى لا يرى الكون إلا ظلاماً، والبصير يرى الأنوار والمحاسن فتزيله هياماً، فإذا تكلّم بحسب مشاهدة البصرية أنكر عليه الأعمى هذه المشاهدة العملية، فلو كان الأعمى ذا عقل سديد لسلّم قول من رأى ببصره الحديد مع أن البصير ذو بصيرة وله سريرة منيرة، فتارة يريح قلبه من ورود الواردات بالإنشادات وتارة بالكلام المسجع يسبك العبارات، وذلك بحسب تجلّي الحضرات القدسيّة.

الأولى: حضرة الفردية «إن الله كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»(1).

والثانية: حضرة المعيّة لقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية 4].

والثالثة: حضرة الوترية بعد فناء المخلوقات عند قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية 16].

فالحضرة الأولى ما وردت الصفات منها، **والثانية** ما وردت الصفات إليها ثم صدرت عنها، **والثالثة** ما صدرت إليها.

واعلم أن قواعدهم، قدّس الله أسرارهم، مبنية على كتابه العزيز، والسنّة النبوية، والقاعدة الكليّة التي ذكرها من أهل السنّة عالمها، وهي أن النصوص تُحمل على ظاهرها، وقد قال سيد الأكوان: «**إن الله كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان**» أي هو الآن موجود ولا شيء معه كما أنه موجود قبل أن يخلق الأكوان ولا شيء معه، لأن هذه الموجودات الحادثة باعتبار قواعدهم الشريفة كالأعراض من جهة أنها لا تقوم بنفسها فمقيمها ومحرّكها ومسكّنها هو الله تعالى الذي إليه ترجعون لقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافات: الآية

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

96]، فإذا كان محرّك الأكوان هو الخالق للمخلوقات وأفعالهم، فهم كآلة النّجار للنّجار فينحت بالقدُّوم وينشر بالمنشار، فلا ينسب فعل من أفعال النجار لهذه الآلة، فلا يقال القدُّوم صنع الصندوق، أو شيئاً من المنجور المعلوم، بل يسند الفعل بحسب الظاهر إلى النجار لا إلى القدُّوم والمنشار.

واعلم أن المصطفى ذا المفاخر خاطب بعض أصحابه بالشريعة والعلم الظاهر، ورمز بالحقيقة لكل عالم، منهم ما هو كالصدِّيق الأكبر، وعلي باب مدينة العلم الأفخر، وكانت وراثة علوم الحقيقة عن الثاني لاشتغال الأول بحب من ليس له في الحسن ثانٍ. وقد قال: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله»، وقال الثاني: «لم أعبد ربّاً لم أره».

وقد ورث الشيخ الأكبر منه العلم وسرّه فيه ظهر، فتكلم بالتوحيد الحقيقي الذي كاد أن تعجز عن فهمه البشر، وقد ذكر في آخر هذه الرسالة ما يناسب أن يكون كالمقدّمة في أولها فقال: وإن سأل سائل وقال: أنت تثبّت الله وتنفي كل شيء فما هذه الأشياء التي تراها؟ فأجاب بقوله، فالجواب: قلت في هذه المقالات مع من لا يرى سوى الله شيئاً، ومن يرى شيئاً سوى الله فليس لنا معه جواب ولا سؤال، فإنه لا يرى غير ما يرى، ومن عرف نفسه لا يرى غير الله، ومن لم يعرف نفسه لا يرى الله، وكل إناء يترشح بما فيه... إلى أن قال: والواصل تكفيه الإشارة.

أقول: وغير الواصل لا يفهم بصريح العبارة، وحيث مهدنا لك هذا التمهيد فلنرجع إلى قول الشيخ ذي المقام الأسمى:

(**ولِهٰذا هُوَ الاسْمُ والمُسَمَّى**) أي ليس الاسم غيره بل المراد بالاسم الذات (**هُوَ الأوّلُ**) أي الذي لا افتتاح لوجوده (**بِلا أوّلِيّة**) أي بلا وصف الأوليّة (**هُوَ الآخِرُ**) أي الذي لا اختتام لوجوده لثبوت قدمه واستحالة عدمه (**بِلا آخِرِيّة**) أي بلا وجود الآخرية (**هُوَ الظّاهِرُ**) أي الواضح الربوبيّة (**بِلا ظاهِرِيّةٍ**) أي بغير وصف الظهور (**وهُوَ الباطِنُ**) أي المحتجب عن الأوهام والكيفية (**بِلا باطِنِيّةٍ**) أي بغير وصف البطون.

أشار قدّس سرّه في هذا الترتيب إلى مرتبة العماء في قوله ﷺ في جواب السائل، وهو أبو رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء»[1].

قال الشعراني قدّس الله سرّه؛ وما نافية لا موصولة بمعنى الذي، فالعماء أول مرتبة تميز الحق تعالى عن خلقه. وقال سيدي عبد الكريم الجيلي: ليس للعماء نسبة فوقية يعبر عنها بالكمالات الإلٰهية، ولا نسبة تحتية يعبّر عنها بالأوصاف الخلقية، فما لها فوق ولا تحت. قال: وهذا بتقدير أن لفظة «ما» نافية انتهى.

فالذات إلٰهية من حيث هي كذلك لا وصف لها ولا اسم ولا رسم أي أثر صادر عنها إلا من حيث ما ورد عنه في الكتاب والسنّة من الأسماء والصفات، ونسبة الآثار إليه، فاعتقادنا في ذاته المسماة بالأسماء الجامعة للصفات والأفعال، الصادرة عنها باعتبار أسمائها وصفاتها جميع الآثار الكونية مجرد إيمان وتسليم ظاهراً وباطناً لأحكام الشرع المحمدي من غير استشكال ولا استفسار، إذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه ما لم تتعين بصفة.

(وأوّلُ التَّعَيُّناتُ) عِلمها بذاتها حين لا كون ولا عين (هُوَ وُجُودُ الحَرْفِ الأوَّلِ) أي الألف المشار به إلى الذات الأحدية، أي الحق من حيث هو أول الأشياء في آزل الآزال (سِرُّ الأوَّلِ) هو ما يختص كل شيء من الحقّ عند التوجه الإيجادي المشار إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية 40].

ولهذا قيل: لا يعرف الحق إلا الحق، ولا يحب الحق إلا الحق، ولا يطلب

(1) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة هود، حديث رقم (3109) [5/ 288] ورواه أحمد في المسند، حديث رقم (16233) [4/ 11] ورواه غيرهما.

الحق إلا الحق، لأن ذلك السر هو الطالب للحق والمحب له والعارف به كما قال المصطفى صاحب المقام الحبي: «عرفت ربّي بربّي»[1].

(وَهُوَ وُجُودُ الحَرْفِ الآخِرِ) أي الألف المشار به إلى الآخر الذي لا نهاية له (سِرُّ الآخِرِ) أي سرّ الأبدية السرمدية (وَهُوَ وُجُودُ حُرُوفِ الظَّاهِرِ) أي هذا الاسم الشريف فاسمه ذاته (وَهُوَ وُجُودُ حُرُوفِ البَاطِنِ).

رتّب قدّس سرّه وبيّن هذه الأسماء الشريفة للإشارة إلى الإحاطة الكلية بدليل قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النّساء: الآية 126] وفي ذلك سرّ لا يكشف، فمن ذاق عرف.

(فلا أوّلَ وَلا آخِرَ ولا ظَاهِرَ ولا بَاطِنَ إلا هُوَ) أخذاً من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] (بِلا سَرَيَانِ هٰذِهِ الأحْرُفِ فِي وُجُودِه وبِلا سَرَيَانِ وُجُودِهِ فِي هٰذِهِ الأحْرُفِ) فإنه تنزّه عن أن يحلّ فيه شيء أو يحل هو في شيء (فافْهَم هٰذَا لِئَلَّا تَقَعَ في غَلَطِ الحُلُولِيَّةِ) بزعمهم أن الله تعالى يحلّ في الحوادث، تنزّه مالك الممالك عن ذلك (لا هُوَ فِي شَيْءٍ) يحلّ به (وَلا شَيْءٍ فيهِ) يَحِلُّ (لا داخِلاً فيه ولا خارِجاً) منه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية 3].

(ويَنْبَغِي أنْ تَعْرِفَهُ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ) التي وصف نفسه بها (لا بِالعِلْم) ونحوه من الصفات ولا تعرفه بالعلم الظاهري (ولا بِالقَوْلِ) أي بالمقول في علم الكلام فإن الاستدلال عليه من عدم الوصول إليه (ولا بِالفَهْمِ) أي بالعقل (ولا بِالوَهْمِ) فإن ذلك يوقع في المهالك، وكل شيء خطر ببالك فالله بخلاف ذلك (ولا بِالحِسِّ) فإنه تنزّه عن أن يعرف بالحواس (ولا بِالعَيْنِ الظَّاهِرِ) فإنّه تنزّه عن رؤية الحوادث ذو الجمال الباهر (ولا بِالعَيْنِ البَاطِنِ) أي بالكشف والفراسة والأسرار (ولا بالإدْرَاكِ) أي اللحاق به، يقال: مشى حتى أدركه، وعاش حتى أدرك زمانه، وأدركه ببصره أي رآه، وكل ذلك مستحيل في حق الإله.

---

(1) هذا الأثر ليس بحديث وإنما هو من كلام سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كما ورد في فيض القدير للمناوي، قال: سئل الصدّيق بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربّي بربّي، فقيل: هل يمكن بشر أن يدركه؟ فقال: العجز عن درك الإدراك إدراك [6/ 181].

(لا يَراهُ إلا هُوَ) بل هو يرى كمال ذاته وأنسه (ولا يُدرِكُهُ إلا هُوَ) بل هو يدرك جلال قدسه (ولا يَعْلَمُهُ) أي يعلم ذاته (إلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ، يَرىٰ نَفْسَهُ وبِنَفْسِهِ يَعْرِفُ نَفْسَهُ) فمن كان عارفاً لله فبالله عرف المربي لقول المصطفى ﷺ: «عرفت ربّي بربّي»[1].

(لا يَرَاهُ أحَدٌ غَيْرُهُ) لقوله: «لن تراني» فهي عامة لكل مخلوق إلا المصطفى المختار (وَلا يُدْرِكهُ أحَدٌ غَيْرُهُ) لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية 103] (حِجابُهُ وَحْدانِيَّتُهُ) الوحدانية سلب الاثنينيّة، وحيث إن الاسم عندهم عين المسمّى والصفة عين الموصوف فقد حجب نفسه بنفسه.

(لا يَحْجُبُهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ) إذ لو حجبه غيره لكان قاهراً له وهذا مستحيل، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية 18] (وحِجابُهُ وُجُودُهُ) اعلم أن الوجود عين الموجود فهو (يَسْتُرُ وُجُودَهُ بِوحدانِيَّتِهِ) أي يستر ذاته بذاته (بلا كيفيّة) أي بغير هيئة محسوسة وحالة مخصوصة (لا يَرَاهُ أحَدٌ غَيْرُهُ).

فإن قيل: كرّره مع ما سبق، فما الفائدة بذلك؟ أقول: ذكره أولاً لنفي رؤية العوام وأعاده ثانياً لنفي رؤية الخواص في الدنيا، وأما في الجنة فيراه المؤمنون والمؤمنات لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيَامَة: الآيتان 22- 23] وسبب ذلك أن الله تعالى يجعل لهم حياة أبدية لا فناء بعدها، فلهذا إذا أرسل كتاباً إلى بعض أهل الجنة جعلنا الله تعالى من أهلها، يكتب فيه: من الحي القيوم إلى الحي القيوم، وهذا تشريف لهم منه سبحانه وتعالى وبشرى بأنه لا يفنى فيها أحد.

(ولا يَرَاه نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) إلّا سيّدهم وسيّدنا المصطفى الأفضل، فرآه بعين بصيرته مخروقاً نظرها إلى عَيْنَي باصرته، وبهذا صح الجمع بين قول من قال: رآه بعين بصيرته، وبين قول من قال: رآه بعيني باصرته. وقد أجاد ابن الفارض قدّس سرّه في تائيته بما حكاه عن المقام الأحمدي بلسان الجمع محرضاً إلى السير

---

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الأثر.

لخوض بحر هذا المقام الشريف والخوض فيه، وهو مقام المشاهدة للملك اللطيف، وهو ظل المشاهدة الحقيقية التي حصلت للمصطفى أفضل البرية، وقد منع منها موسى الكليم ذو النفس الزكية، وإلى ذلك أشار الشيخ فقال:

(وَدُونَكَ بَحْراً خُضْتُهُ وَقَفَ الأولى بِساحِلِهِ صَوْناً لِمَوْضِعِ حُرْمَتِي) ودونك أي خذ أيها المسترشد رشدك بخوض البحر الذي خضته بالتبعية لصاحب هذا المقام الذي وقف السابقون من العارفين بساحله، ولم يخوضوا في لجته صيانة لحرمة المصطفى صاحبه، فلذا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: الآية 152] إشارة (لِكَفِّ يَدٍ صُدَّتْ لَهُ إذْ تَصَدَّتِ) أراد بالبحر في البيت السابق رؤية الحق وأراد بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ هذه الرؤية التي منع منها موسى الكليم بقوله: «لن تراني»، وخص بها المصطفى الذي إلى حضرة الحق دانى، وحصل ظلّها لأفراد أتباعه وعترته.

وقد ورد في الخبر أنه لما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قيل له: ليس ذلك لك، ذاك ليتيم يأتي بعدك، فقال مصدّقاً: سبحانك من أن يصل إليك أحد إلا من ارتضيته لنفسك وخصصته بأعلى مقامك، تبت إليك عما تصديتُ لما ليس لي وأنا أول المؤمنين» بتخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بعلوّ هذا المقام، وسماه الحق تعالى يتيماً حيث قال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحىٰ: الآية 6].

وقوله: (وَلا وَلِيٌّ كَامِلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ يَعْرِفُهُ) أي من جهة حقيقة ذاته لا من جهة معنى صفاته لقوله جلّ علاه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: الآية 115] إشارة باطنية مختصة بمذهب الصوفية، وقد قال قائلهم:

نظرت إلى الوجه الذي الكل هالك	سوى وجهه والوجه ما هو مبهم
فظنوا بأني ناظر في وجوههم	عيون لهم عمّا أشاهده عمُوا
وأترك وجهاً بالمحاسن مشرقاً	وأنظر وجهاً حَشْوُهُ القبحُ والذّم

واعلم أن أهل المشاهدة المكاشفين لهم مذهب في التوحيد خاص على خلاف مذهب المتكلمين وأعمالهم باطنية وشريعتهم باطن الشريعة الإسلامية، وقد قال قائلهم:

منحتك علماً إن ترد كشفه فرد سبيلي واشرع في اتباع شريعتي

أي أعطيتك أيها السالك علماً وهو علم توحيد الملك الديّان إن ترد كشفه بطريق المعاينة والوجدان اتبع شريعتي الباطنية وطريقتي لتفوز بما تريد وتكون رفيقي بالسير إلى مقام الأحمدي الحقيقي المدلول عليه بقوله جلّ وعلا خطاباً لرسوله ذي الفضل والجاه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 31] فاتّباعه له طريقتان: طريقة ظاهرية، وهي ظاهر الشريعة المخاطب بها بلسان العموم، وطريقة باطنية، وهي باطن الشريعة المخاطب بها بلسان الخصوص. ودليل الطريقتين من الآيات القرآنية والسنّة النبويّة، ولا يصل أحد إلى طريق الحقيقة الثاني إلا بعد قطع طريق الشريعة الأول، فالحقيقة باطن الشريعة ولا يمكن الوصول إلى باطن الشيء إلا بعد خرق ظاهره.

فأهل الباطن هم الأحباب الداخلون إلى الحضرة من الباب، فمشربهم الخاص مشاهدة الحيّ القيوم التي هي مصدر جميع الفيوضات والعلوم، فيصدق على كل واحد منهم أنه بلغ في العلم الرتبة العظمى كما أخبر الحق تعالى عن بعضهم بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية 65] فمن لم يشرب من عين الحقيقة لا يعدّ منهم، فلذا قال قائلهم:

فمنبع صدّىً من شراب نقيعه لديّ فدعني من سرابٍ بقِيْعَةِ

الصداء ماء عذب ألذّ من العسل، تضرب العرب بعذوبته المثل فيقولون: «ماء ولا كصداء» فشبه شرب أهل الباطن الحقيقي بالشرب من هذه العين، وشراب أهل الظاهر بالشّرب من سراب يشبه الماء وليس بماء، وهو الذي يظهر في الأرض المتسعة على بُعدٍ، وقد شبه الحق تعالى به عمل الكفار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النُور: الآية 39] الآية.

ومعنى البيت: إن منبع عين الحقيقة المشبّه بعين صداء نقيعه أي عينه عندي أي في قلبي، فدعني من عقائد أهل الظاهر المشبهة بسراب بقيعة من الأرض المتسعة يظهر فيها كالماء وليس بماء انتهى.

وقد صرح الشيخ ذو الكمال بعقائد أهل الباطن فقال: (نَبِيُّهُ هُوَ وَرَسُولُهُ هُوَ، وَرِسَالَتُهُ هُوَ، وكَلامُهُ هُوَ، أَرْسَلَ نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ إِلَى نَفْسِهِ) قوله قدّس سرّه: نبيّه هو أي هو المنبيء بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96] فالنبيّ الذي أنبأ الخلق أي أخبرهم عن الله تعالى ذاته وفعله فعل من أفعال ربّه قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفَال: الآية 17].

وقوله: ورسوله هو، أي هو عين الرّسول، وهو بلّغ الرسالة. وقوله: وكلامه هو، أي الذي تكلّم به وهو الذي بلّغه، وحيث أن لا فعل لمخلوق بل هو الفاعل فيكون في الحقيقة الإرسال الحاصل للرسل من ذاته لأن الرسول وفعله فعل من أفعاله سبحانه وهو المبلغ بذاته لأن الرسول كالآلة.

وقوله: إلى نفسه، لأنه هو الذي خلق المطالبين بإجابة الدعوة وفعلهم فصار الجميع كالآلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: الآية 7] وهو الفاعل لا سواه. فإن قيل: يلزم على ذلك أنه لا فعل لأحد فلأيّ شيء يعذب الكافرين الذين لو أراد الله هدايتهم لهداهم؟ الجواب عن ذلك قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبيَاء: الآية 23] لأنه المالك والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء، كما لو كان للإنسان ثوبان فَحَرَّقَ أحدهما وعطّر الآخر فلا يعارضه أحد في ذلك، والحق تعالى لما قدّر خلق الخلق في الأزل جعلهم قسمين وقال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»[1]، فإن قيل: نترك العمل ونكل الأمر إلى ما قدّر في الأزل، فالجواب عنه كما أجاب به رسول الله ﷺ من الفضل له بقوله: «اعملوا فإنّ كلاًّ ميسّر لما خُلِقَ له»[2].

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث (84) [1/ 85].

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب فسنيسره للعسرى، حديث رقم (4666) [4/ 1891] ورواه مسلم في صحيحه، باب كيفية الخلق الآدمي. . .، حديث رقم (2647) [4/ 2040] ورواه غيرهما.

(بِلا وَاسِطَةٍ وَلَا سَبَبٍ غَيْرِهِ) بل هو السبب، خلق وكوّن وأراد لا لعلّة (لا تَفَاوُتَ بَيْنَ المُرْسَلِ والمُرْسَلِ بِهِ، والمُرْسَلِ إِلَيْهِ) فالثلاثة بصيغة اسم المفعول، فالمرسل الأول جبريل، والمرسل به الوحي، والمرسل إليه الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا تفاوت بينها لأن الفاعل هو الله تعالى فلا شيء منها علّة لغيره.

(وُجُودُ حُرُوفِ النَّبَاءِ) بتقديم النون على الباء بمعنى الخبر وحروف الأنبياء أي المخبرين عنه سبحانه وتعالى وجوده لا غير أي هو المنبىء وهو المخبر (وَلَا وُجُودَ لِغَيْرِهِ) في فعل من الأفعال لقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96].

(وَلَا فَنَاؤُهُ) أي فناء الوجود (وَلَا اسْمُهُ وَلَا مُسَمَّاهُ) بل هو خالق الكمال بلا اشتباه، (ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ) أي ذاته ووجوده وحقيقته بعدم الوجود الحقيقي وأن الله تعالى كان ولم يكن معه شيء وهو الآن كما كان (فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) بأنه هو الموجود الحقيقي.

(وقَالَ ﷺ: «عَرَفْتُ رَبِّي بِرَبِّي») أثبت المصطفى وجود معرفته ثم قيدها بأنها بربّه جلّ وعلا، فهو الذي عرفه وأدّبه، وقد قال: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[1] أي بإفضاله عليَّ بالعلوم الوهبية والمعرفة الإلْهية، أو أدّبه بآداب العبودية وهذّبه بمكارم أخلاق الربوبيّة، ليكون ظاهر عبوديته مرآة للصادقين، وباطنها مرآة للصدّيقين، ولذا قال الشيخ الأكرم: (أَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ) أي بالحديثين الشريفين إلى مقام الصدّيقين (إِنَّكَ لَسْتَ أَنْتَ) أي ذات قائمة بنفسها أو موجودة بذاتها، فإن الموجودات الحادثة ليس لها وجود في الخارج بالاستقلال إلا بإيجاد الله تعالى وإبقائه لها، فهي كالأعراض لا تقوم بذاتها.

(1) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، حديث رقم (31835) [11/ 183] وأورده العجلوني في كشف الخفاء، برقم (164) وقال: في الأصل رواه العسكري عن علي رضي الله عنه [1/ 72].

(وأَنْتَ) لا تَقُوم بذاتك أيضاً (بل هُوَ) موجود (بِلا أَنْتَ) أي بلا وجودك (وأمّا من) فهم من قول الشيخ قدّس سرّه أن الممكنات هي وجود الحق تعالى أو هو حالّ فيها أو حالة فيه فلا فهم له، فقد صرّح بنفي ذلك بقوله: (لا هو داخلٌ) أي حالٌ فيك (ولا أنت داخلٌ فيه ولّا هُوَ خارِجٌ عَنْكَ) لوجودك به (وَلّا أَنْتَ خارِجٌ عَنْهُ) لقيامك به.

(وَلّا أَعْنِي بِذٰلِكَ أَنَّكَ مَوْجُودٌ وَصِفَتُكَ هٰكذا) أي لك صفة الوجود (بَلْ أَعْنِي بِهِ أَنَّكَ كُنْتَ قَطُّ) أي في الزمن الماضي (وَلّا تَكُونُ) أي توجد في الزمن المستقبل (لا بِنَفْسِكَ وَلّا بِهِ) أي بربّك لأنك كنت عدماً محضاً (وَلّا فِيهِ) مظروفاً ولا معه موجوداً (وَلّا أَنْتَ فانٍ) لتعلق علمه بوجودك أزلاً، فإنّ الأشياء كلها متعلقة بعلمه سبحانه تعلقاً يستحيل عدمه لاستحالة وجود علمه الواجب وجوده بغير معلوم واستحالة طريان تعلّقه بها.

(وَلّا أَنْتَ مَوْجُودٌ) باعتبار عدم إيجاد الله تعالى لك إلاّ في الوقت الذي قدّره (أَنْتَ هُوَ) أي في وقت عدمك باعتبار أنك في علمه تعالى، وعلمه صفته، والصفة عين الموصوف (وَهُوَ أَنْتَ) بلا وجود (عِلَّةٍ مِنْ هٰذِهِ العِلَلِ) المنفية لكونك غيباً في علمه، وعلمه ذاته، وذاته علمه، وهذا هو الاتحاد في اصطلاحهم، والاتحاد هو شهود وجود الحق الواحد المطلق، فكل شيء موجود بالحق لا بنفسه فيتحدّ به الكلّ من حيث كون كل شيء موجوداً به، معدوماً بنفسه، لا من حيث إن له وجوداً خاصاً اتحد به فإنه محال. فلذا قال قائلهم:

وَشَفْعُ وُجُودِي فِي شُهُودِي ظَلّ ... فِي اتّحادِي وِتراً في تَيَقُّظِ غَفْوَتِي

الشّفع بفتح الشين لغة هو الزوج، وحقيقة هو وجود الربّ شفع بوجود العبد. وقوله: في اتحادي، تقدم معنى الاتحاد. وقوله: وتراً، والوتر بكسر الواو لغة هو الفرد، وحقيقة هو وجود الربّ، أي فرداً باقياً بعد فناء وجود العبد. ومعنى البيت: أن تشفع وجوده وهو وجود الحق في حال شهوده صار وتراً لا يقارنه وجوده في حال اتحاده، وذلك الاتحاد كان في حال يقظة عن غفوة الغفلة أي انكشف له في تيقظه أن وجود الحق كان أبداً واحداً وما رآه من

وجوده كان خيالاً تراءى له في نوم الغفلة وجوداً آخر، فاضمحل في حال التيقظ. ومراده بالاتحاد هذا لا أن وجود العبد اتحد مع وجود الربّ تعالى الله عن ذلك.

(فَإِنْ عَرَفْتَ وجودك بهذه الصّفة) أي إنك ما كنت قط (فقد عرفت الله) أي علمت أن وجودك ليس بوجود مستقل، بل وجودك عارض تابع لوجود موجدك سبحانه، فلذا قال قائلهم:

مَن لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال

(وإلّا فَلا) معرفة لك (وَكُلُّ العَارِفِينَ أَضَافُوا مَعْرِفَةَ اللهِ تَعالَى إِلَى فَنَاءِ الوُجُودِ وَفَنَاءِ الفَنَاءِ) ومعناه أن تجرّد نفسك العدميّة بجميع صورها وتغيراتها وتكيُّفاتها ترجعها إلى أصلها الذي هو العدم، ولا تتقيد بحال من أحوالها، بل يكون هو مظهراً لنفسك الوجودية التي جرّدتها أيضاً عنها ورجعت إليها سائر أوصافها، ولا تقيّدها بشيء من الأحوال العدمية ولا بصفة من صفاتها أيضاً فتخرج إلى حضرة الإطلاق الكليّ من جميع القيود الكونية بحيث لا ترى لك ذلاً ولا عجزاً ولا ترى لك تدبيراً ولا اختياراً حال احتجابك بها عن نفسك الوجودية، ولا ترى لك توكلاً ولا تسليماً حال كشفك لها، فكل ذلك أمور عدميّة مخلوقة له تعالى. وهذه حالة فناء الفناء.

فمن أضاف معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وفناء الفناء (فَذَلِكَ غَلَطٌ مَحْضٌ وَسَهْوٌ فَاضِحٌ) حيث إن المصطفى ﷺ أضاف معرفة الله تعالى إلى معرفة النفس فقال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

(فَإِنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَى لا تَحْتَاجُ إِلَى فَنَاءِ الوُجُودِ وَلا إِلَى فَنَاءِ فَنَائِهِ لِأَنَّ الأَشْيَاءَ لا وُجُودَ لها، ومَا لا وُجُودَ لَهُ لا فَنَاءَ لَهُ، لِأَنَّ الفَنَاءَ بَعْدَ إِثْبَاتِ الوُجُودِ) أي إذا أثبت وجودك العدمي ثم نفيته فقد أثبتّ وجوداً عدمياً مع وجود الحق الثابت الذي لا يقبل الزوال ولا التغير.

(فَإِذَا عَرَفْتَ نَفْسَكَ بِلا وُجُودٍ وَلا فَنَاءٍ فَقَدْ عَرَفْتَ اللهَ تَعالَى) وَإِلّا فَلا مَعْرِفة لَكَ (وفِي إِضافَةِ مَعْرِفَةِ الله تَعالَى إِلى فَنَاءِ الوُجُودِ وفَنَاءِ فَنَائِهِ إِثْبَاتُ

الشِّرْكِ) أي الاشتراك بين الوجود العدمي والوجود الحقيقي (لِأَنَّكَ إِذَا أَضَفْتَ مَعْرِفَةَ اللهِ تعالى إِلَى فناءِ الوجودِ وفناءِ الفناءِ كانَ الوجودُ لِغَيرِ الله تَعالى) وَهُوَ (نَقِيضُهُ) أي مناقض لوجود الحق المطلق (وهُنَالِكَ شِرْكٌ وَاضِحٌ) أي ظاهر عند أهل الباطن، وخفيّ عند أهل الظاهر، ولذا عبّر عن مثله بالشرك الخفي.

قال سيّدي عمر بن الفارض مخاطباً لمن كان من علماء الظاهر كالمعارض بقوله:

لو عرفت بنفس عن هُدَى الحق ضللت ولكن على الشرك الخفي عكفت

الشرك الخفي هو أن تثبت لنفسك فعلاً بعد قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96]، أو تثبت لنفسك وجوداً حقيقياً بعد قوله ﷺ: «إن الله تعالى كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان»[1].

وقوله: لو عرفت بنفس أي لو عرفت نفسك لعرفت ربّك ولكنك ضللت عن اتباع الحق (لأنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[2]، وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ أَفْنَى نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ الغَيْرِ يُنَاقِضُ فَنَاءَهُ، ومَا لا يَجُوزُ ثُبوتُهُ لا يَجُوزُ فَنَاؤُهُ) لأنَّ الشيء إذا لم يكن ثابتاً لا يحكم عليه بوجود ولا فناء، فلذا قال:

(وُجُودُكَ لَا شَيْءَ) لأنه مسبوق بالعدم وينتهي باعتبار إقامتك في الدنيا إلى العدم، والشيء هو الموجود الذي لا يقبل العدم، فإن الحق سبحانه وتعالى هو الموجود المطلق الحق المحض.

(وَلا شَيْء لَا يُضَافُ إِلَى شَيْءٍ فَانٍ، وَلَا غَيْرِ فَانٍ، لا موجُودَ ولا مَعْدُومَ) لأنه لم يثبت له الوجود حتى يوصف به، والمعدوم لا بدَّ له من تقدم الوجود عليه حتى يوصف بالعدم، بل يطلق عليه أنه معدوم مجازاً.

(فَلِهَذا أَشَارَ النبيُّ ﷺ) أي بقوله: «إنَّ الله تعالى كان ولا شيء معه» إلخ

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(إِلَى أَنَّكَ مَعْدُوم) كما كنت قبل نسخة التكوين في علم الربّ الرّحيم (فِي الآنِ القَدِيمِ) أي الدائم وهو امتداد الحضرة الإلٰهِيَّةَ الذي يندرج به الأزل في الأبد وكلاهما في الوقت الحاضر لظهور ما في الأزل على أحايين الأبد، وكون كل حين منها مجمع الأزل والأبد والوقت الحاضر، فلذلك يقال له: باطن الزمان، وأصل الزمان. وقد يضاف إلى حضرة العندية لقول رسول ربّ البريّة: «ليس عند ربّك صباح ولا مساء»[1].

(فَإِنَّ اللهَ تعالَى هُوَ وُجُودُ الأَزَلِ، ووُجُودُ الأَبَدِ، ووُجُودُ القِدَم) اعلم أن وجود الحق تعالى واحد، وأمره واحد، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ [القَمَر: الآية 50] لا تعدُّد فيها وإنما التعدد الوجودُ المحضُ ويقابله العدم المحض، والموجودات برزخ، فإن الخلق لهم وجهان: وجه للحق تعالى أي الذين يستمدون به منه، ووجه للخلق أي الذين هو وصفهم أي وصف حدوثهم. فمن حيث الأول وجود، ومن حيث الثاني عدم، فهم معدومون بهذه النسبة، فالأمر الواحد الظاهر به كل شيء من غير أن يقيِّده شيء هو الحق الثابت وما عداه باطل زاهق.

فلذا قال: (بِلا وُجُودِ الأَزَلِ والأَبَدِ والقِدَمِ) أي بنفي هذه المسميات التي هي الأزل والأبد والقدم (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كذٰلِكَ ما كانَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ) أي منفرد بالوجود الحق (وواجب أن يكون وحده لا شريك له) أي في الألوهية والوجود الثابت (فَإِنَّ شَرِيكَهُ هو الَّذِي يَكُونُ وُجُودُهُ بِذَاتِهِ لا بِوُجُودِ اللهِ تعالى، وَمَنْ كانَ كذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مُحْتاجاً إِلَيهِ) أي إلى الله تعالى (فَيَكُونُ إِذاً ربّاً ثانِياً وذٰلِكَ مُحالٌ) لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية 22] أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا، وفي هذه الآية الشريفة قياس استثنائي حذفت منها الاستثنائية والنتيجة أي لكنهما لم تفسدا فلم يكن فيهما آلهة غير الله تعالى.

وأيضاً لو قدر أن فيهما إلٰهين فهما إمّا أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا لزم

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

عليه اتفاق المؤثرين على أثر واحد، وذلك محال. وإن اختلفا بأن قال أحدهما: أخلق العالم بهيئة كذا وكذا، وقال الآخر: بل أخلقه بغير هذه الهيئة، فيلزم عليه أن لا يوجد شيء لأن ما أوجده أحدهما مخالف لإرادة الآخر فلو أعْدَمهُ الثاني لزم عليه إعدام العالم والعالم موجود فيلزم عليه عجز الثاني، وإذا ثبت عجزه انتفت ألوهيته، وهذا هو المطلوب.

(فَلَيْسَ للهِ تَعالَى شَرِيكٌ) أي مشارك له في الألوهية وغيرها (ولا نِدٌّ) الندّ بالكسر المثل والنظير له (وَلَا ضِدٌّ) أي لا نظير (وَلَا كُفْواً لَهُ) فقول الشيخ قدّس سرّه: ولا كفواً له، عطف تفسير، والكفو بسكون الفاء وضمها النظير.

(ومَنْ رَأىٰ شَيْئاً مَعَ اللهِ تَعالَى) له وجود حقيقي (أو مِنَ اللهِ تعالَى) ظهر وجوده (أوْ فِي اللهِ تعالَى) أي بالله تمّ وجوده (وذَلِكَ الشَّيءُ مُحْتاجٌ إلَى اللهِ تعالَى بالرُّبُوبِيَّةِ) فمن حيث الاحتياج يكون لذلك الشيء وجود حقيقي، وهو مردود بقوله ﷺ: «إن الله كان ولا شيء معه»[1] الحديث.

وحينئذ (فَقَدْ جعلَ ذلِكَ الشَّيء أيضاً شَرِيكاً يَحتاجُ إلَى اللهِ تعالَى بالرُّبُوبِيَّةِ) فيكون قد جعل له وُجُوداً وهذا يأباه معنى الحديث الشريف، فلذا قال الشيخ قدّس سرّه: (ومَنْ جوّزَ أنْ يكونَ معَ اللهِ تعالَى شَيءٌ يَقُومُ بِنَفْسِهِ) من غير احتياج غافلاً عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96]، (أوْ يَقُومُ بِهِ) أي بالله تعالى (أو هُوَ) أي ذلك الشيء (فَانٍ عنْ وُجُودِهِ أوْ عنْ فَنَائِهِ) فيكون قد أثبت لذلك الشيء وجوداً لأن الفناء لا يتصوّر إلا بعد الوجود (فَهُوَ بَعِيدٌ مَا شَمَّ رَائِحَةَ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ، لأنَّ مَنْ جَوَّزَ أنْ يَكُونَ مَوجُوداً سِواهُ) أي وجوداً حقيقيّاً مع الحق جل وعلا سواء كان (قَائِماً به) أي بالله تعالى، أو فانياً فيه (فَيَصِيرُ فَانِياً وفَنَاؤهُ يَصِيرُ فَانِياً في فَنَائِهِ، فَيَتَسَلْسَلُ الفَنَاءُ في الفَنَاءِ) وحقيقة التسلسل توقف شيء على آخر، والآخر على آخر، إلى ما لا نهاية له، فإنَّ الفاني لا وجود له، فلا معرفة له.

(وهٰذَا شِرْكٌ) أي اشتراك بين الفناء الذي هو محتدم الوجود وبين المعرفة

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

التي هي الوجود بالله تعالى (بَعِيدٌ) عن العقل (ولَيْسَ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ) فمن أضاف معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وفناء الفناء (فَهُوَ مُشْرِكٌ) حيث جعل لله تعالى شريكاً في الوجود (لا عَارِفٌ بِاللهِ تعالَى وَلَا بِنَفْسِهِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى مَعْرِفَةِ النَّفْسِ ومَعْرِفَةِ اللهِ تعالَى) فالجواب سبيل معرفتهما (أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعالَى كانَ ولَمْ يَكُنْ معهُ شَيْءٌ وَهُوَ الآنَ كَمَا كانَ) أي لم يكن معه شيء موجوداً وجوداً حقيقياً، فإنّ الوجود الحق للواحد الحق.

(فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أنا أرَى نَفْسِي غَيْر اللهِ تعالى ولا أرَى الله نَفْسِي، فالجَوابُ أرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بالنَّفْسِ وُجُودَكَ وحَقِيقَتَكَ) اعلم أن جميع الموجودات من كل مخلوق من حيث الوجود عين الوجود الحق سبحانه وتعالى، ومن حيث التعيين بالمقادير والتصاوير غير الواحد الحق سبحانه وتعالى، اعتباراً لا حقيقة لأن الغير بالحقيقة إنما تكون بين الوجودين الحقيقيين المستقلين وهذا محال عقلاً وشرعاً، فإن من حيث الحقيقة التي أرادها الشيخ قدّس سرّه الكل هو وجود الحق سبحانه وتعالى، ومثال ذلك أن الفقاقيع الظاهرة من الماء على وجهه ورَغْوَة موج البحر وكذا الثلج، فإن هذه الأشياء كلها من حيث الحقيقة عين الماء لا زائدة عليه، ومن حيث التعيين بالصور المذكورة غيره؛ فعلى الحقيقة كلها اعتبارات وتقادير وتصاوير ظهر بها الماء ولا وجود لها في نفسها وإن ظهرت.

بل الظاهر لك بالصورة هو الماء فقط، والدلائل الدالة على وحدة الوجود كثيرة منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية 10]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية 115] أي ذاته ووجوده فقط. وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية 17]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: الآية 126]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: الآية 186]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: الآية 85] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية.

ومن الأحاديث القدسية قوله ﷺ حاكياً عن ربّ البريّة: «لا يزال عبدي

يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببتهُ كنتُ سمعَه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها»[1] الحديث.

وقوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يقول: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني - وفي رواية أخرى: جعت فلم تطعمني -»[2].

وروى الترمذي في حديث طويل: «والذي نفس محمّد ﷺ بيده لو أنكم دُلِّيتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبطتم على الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3] [الحديد: الآية 3] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة، وقوله ﷺ: «إن الله تعالى خلَقَ خلقه في ظلمة»[4]، أي قدّر تقاديره وصوّر تصاويره في العدم المحض، فألقى عليهم من نوره أي تجلى عليهم وانكشف لهم أنه الوجود الواحد الحق لا وجود لغيره كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية 35] الآية، فمن أصابه من ذلك النور، أي كشفت بصيرته وتحققت سريرته بذلك التجلّي أنه كما تجلّى هدي ومن أخطأه فقد ضلّ لدعواه الوجود وجهله بمعرفة نفسه.

(لا أنَّ النَّفسَ المُسمَّاةِ باللَّوَّامَةِ ولَا الأمّارة ولا المُطْمَئِنَّةِ بَلْ أشارَ) أي المصطفى ﷺ (بِالنَّفْسِ إلى ما سِوَى اللهِ تعالَى جميعاً كَما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ أرِنَا الأشْياءَ كَمَا هِيَ» أعْني بالأشْياءِ مَا سِوَى اللهِ تعالَى، أيْ عرِّفْني مَا سِوَاكَ لِأعْلَمَ وَأعْرِفَ الأشْيَاءَ أيُّ شَيْءٍ هِيَ) أي أشهدني ما سواك شهوداً ذوقياً بالقلب.

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم (2569) ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ من هذا النوع. . .، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.

(3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، خلقه هدايته، حديث رقم (6169) [14/ 43] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر إلقاه الله جلّ وعلا النور على من شاء من خلقه هدايته، حديث رقم (6169) [14/ 43] ورواه غيرهما.

اعلم أن مراتب الشهود بوحدة الوجود ثلاثة لدى الموفين بالعهود، الأولى: من يشهد أن الحق الحق سبحانه وتعالى حقيقة جميع الموجودات الكونية وباطنها علماً يقينياً، ولكن لا يشاهد وجود الحق تعالى في الخلق على معنى أنّ المخلوقات كلها قائمة به وهي تقاديره وتصاويره.

والثانية: من يشاهد الحق تعالى في الخلق أي يشاهد أن الظهور لوجود الحق تعالى فقط، والمخلوقات كلها مجرد اعتبارات مفروضات مقدرات منه فيه لا وجود لها استقلالياً شهوداً حالياً.

والثالثة: من يشاهد الحق في الخلق والخلق في الحق بحيث لا يكون أحدهما مانعاً من شهود الآخر، فهذه المرتبة أعلى من المرتبتين السابقتين وهي مرتبة الأنبياء والمرسلين وورثتهم الأقطاب والصدّيقين، فلذا قال الشيخ قدّس سرّه:

(أَهِيَ أَنْتَ أَمْ غَيْرُكَ، وَأَهِيَ قَدِيمةٌ باقِيَةٌ أَمْ حَادِثَةٌ، فَأَراهُ اللهُ تعالى ما سِوَاهُ نَفْسُهُ بِلا وُجُودِ مَا سِوَاهُ) وفي ذلك إشارة إلى المرتبة الثالثة. فإن قيل: في المرتبة الثالثة لا يمنع شهود الحق من شهود الخلق، وفي كلام الشيخ قدّس سرّه أن الحق تعالى أراه ما سواه نفسه بلا وجود ما سواه، فكيف يكون ذلك إشارة إلى المرتبة الثالثة؟

الجواب: أن ما سوى الله تعالى مخلوق من نوره ﷺ وهو قبضة من نوره تعالى، لخبر «إن الله تعالى قبض قبضة من نوره وقال لها: كوني محمداً ﷺ فتمّ الأمر، أن لا موجود إلا الواحد المعبود»[1] فافهم الإشارة من هذه العبارة ولا مجال للتوضيح أكثر من هذا التصريح.

فلذا قال الشيخ قدّس سرّه: (فَرَأى الأشياءَ كَمَا هِيَ، أَعْنِي رَأى الأَشياءَ ذَاتَ اللهِ تعالَى بِلا كَيْفٍ) فكيف موضوعة للاستفهام (عَنِ الأَحْوَالِ) أي رآها بلا حال وهيئة (ولا أَيْنَ) أي ولا زمان يدور عليها بهذا الاعتبار (ولا اسْمٍ) لها

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

لاضمحلالها (واسْمُ الأشياءِ يَقَعُ عَلَى النَّفْسِ) أي على العالم فيقال: نفس العالم ما سوى الله تعالى.

(ويَقع على غَيْرِها) أي غير النفس مِنَ الأشْيَاء، فإنَّ وُجُودَ النفسِ ووُجُودَ الأشياءِ سَيَّانٌ) أي مستويان (في الشَّيْئِيَّةِ، فَمَنْ عَرَفَ الأشياء) أي حقائقها وأصولها (عَرَفَ النَّفْسَ) أي أصلها وحقيقتها (ومَتَى عَرَفَ النَّفْسَ فَقَدْ عَرَفَ الرَّبّ تَعالى) أي المربي والموجد لهذا العالم من نور نبيّه المصطفى ﷺ الذي هو من نوره بلا خفاء.

(لِأنَّ الَّذِي تَظُنُّ أنَّهُ سِوَى اللهُ تَعَالىٰ لَيْسَ هُوَ سِوَى اللهُ تَعالَى) فلذا قال قائلهم:

لا تــكــن إلاّ لــمــولاك أنــا	وأنــا أنــت كــمــا أنـت أنــا
أنــت لا أنــت أنــا لــسـت أنــا	ما خرجنا نحن عن محض الفنا
وهــو الله ولا غــيــر فــكــن	هــو لا أنــت تــدلّــى ودنــا
بــاطــل أي عَــدَمٌ قَــدْره	فــهــو تــقــديــر هــنــاك وهــنــا
هــو حــق وســواه بــاطــل	جــاء فــي الــقــرآن هــذا عــلــنــا
وبــه الــسُّــنَّــة أيــضــاً ورَدَتْ	فــتــمسّك بــهــمــا نِــلْتَ الــمُــنَــا
لا تــقــل شــيء ســواه أبــداً	مــنــه تــأتــيــك ســروراً وهَــنَــا
مــا مــع الله وجــودٌ لــلــسوى	والسوى حيث التجلي وَهَنا
ممكن الــمــمــكــن من إمكانه	لا تــخــالــطــه بــواجــب الــفــنــا
وتــحــقّــقْــهُ تــجــده واحــداً	لــيــس مــخــلــوطاً بــمــعــدوم لــنــا
إنــمــا الــمــعــدوم مــخــلــوق لــه	لم يزل في العلم أمراً ممكنا

(ولٰكِنَكَ ما تَعرِفُهُ وأنْتَ تَرَاهُ، وَلَو تَعْلم أنَّكَ تَرَاهُ ومَتىٰ كَشَفَ لَكَ هٰذَا السِّر عَلِمْتَ أنَّكَ لَسْتَ مَا سِوَى الله تَعالَى) فلذا قال في الحكم: شعاع البصيرة يُشْهِدُكَ قربَه منك وعين البصيرة يُشْهِدُكَ عدمَك لوجوده، وحق البصيرة يُشْهِدك وجودَه لا عدمَك ولا وجودَك.

(وعَلِمْتَ أنَّكَ كُنتَ مَقْصُودَكَ) أي من حيث طلبك لمعرفة نفسك «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» (وأنَّكَ لا تحتاجُ إلَى الفَناءِ) لمعرفة ربّك فإذا أطلق بعض العارفين أنه فانٍ فالمراد به فناء الصفات كما صرّحتُ به في أدب المريد بقولي: تفنى الصفات منه في مولاه يرضى بما الله له يرضاه.

(وأنَّكَ لَمْ تَزَلْ ولا تَزَالُ) في تعلق علمه سبحانه وتعالى بك أزلاً وأبداً على وجه لا يقبل الزوال فهو محيط بالكليات والجزئيات إحاطة واحدة من غير زيادة إحاطة بمعلوم دون معلوم، ولا فرق لديه بين وجود ومعدوم (بِلا حِينٍ ولا أوَانٍ) عطف تفسير للحين أي بلا دوران وقت وزمان.

(كَمَا ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ جَمِيعُ صِفَاتِكَ صِفاتُهُ تَرَاهُ) أي ذلك بعد الوصول (وظاهِرُكَ ظاهِرُهُ) لأنك ظهرت بظهوره (وباطِنُكَ باطِنُهُ) لأنك كنت باطناً في بطونه (وَأوَّلُكَ أوَّلُهُ) لأنك كنت متعلقاً بعلمه تعالى في الأزل (وَآخِرُكَ آخِرُهُ) بِلا نهاية تبعاً له «يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت».

(بِلا شَكٍّ ولا رَيْبٍ) الشكُّ ضدّ اليقين، والريب هو الشكّ، فأكده به نافياً لهما لتحقق ذلك من غير شبهة.

(وتَرَىٰ صِفاتَكَ صِفَاتَهُ وذَاتَكَ ذَاتَهُ بِلا صَيْرُورَتِكَ إيّاهُ وصَيْرُورَتِهِ إيّاكَ) وهذا هو الاتحاد، وقد تقدّم تعريفه ومعناه: أن كل شيء موجود بالله تعالى ومعدوم بنفسه بلا اشتباه (ولا تَقْلِيلٍ ولا تَكْثِيرٍ) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: الآية 88]).

اعلم أن الله تعالى له وجه وله يد وأيدي وعين وأعين واستواء ونزول وجميع ما ورد في الكتب والسنّة نؤمن به من غير تأويل، وأنه هو الموجود الحق وغيره مضمحل الوجود (بِالظَّاهِرِ والبَاطِنِ) فوجوده كله وجه لا قفاء له ولا ظهر له، فلهذا سمع موسى عليه السلام نداء الحق تعالى من جميع جوانبه، وذلك أن موسى عليه السلام لما ذهب إلى مصر من الشام ومعه زوجته وأخطأ الطريق كما أخبر الحق تعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾

[القَصَص: الآية 29] عن الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ [القَصَص: الآية 29] أي شعلة من النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: الآية 29]، فلما أتاها وقف منها قريباً فإذا هي شجرة خضراء، والذي ظنه ناراً هو نور، فصار عموداً ما بين السماء والأرض، فاشتدّ خوفه فناداه الله تعالى نداء لا يشبه نداء غيره بل هو منزّه عن الحرف والصوت، فسمعه موسى عليه السلام من جميع جوانبه، فأجاب سريعاً لا يدري من دعاه فقال: لبيك أسمع كلامك ولا أرى مكانك فأين أنت، قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وأقرب إليك منك» انتهى.

أقول: وهذا من جملة الدليل على وحدة الوجود الحق (يَعْنِي لا مَوْجُودَ إِلَّا هُوَ، وَلا وُجُودَ لِغَيْرِهِ) وُجوداً حقيقياً (فَيَحْتاجَ إِلَى الهَلاكِ وَيَبْقَى وَجْهُهُ تَعَالَى يعني لا شيء إلا وجهه) فهو الذي يقوم به كل شيء (كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَعْرِف شَيْئاً ثُمَّ عَرَفَهُ مَا أَفْنَى وُجُودَهُ بَلْ أَفْنَى جَهْلَه) فلا يقال له: فاني الوجودِ بل فاني الجهل.

(وَوُجُودُهُ بَاقٍ بِحَالِهِ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلِ وُجُودٍ بِوُجُودٍ آخَرَ) بل وجوده باقٍ بوجود موجده لا بالاستقلال (وَلا يَتَرَكَّبُ وُجُودُهُ بِوُجُودِ المَعَارِفِ) التي أعطاها الحق تعالى له (وَلا يَتَدَاخَلُ) الوجود في الوجود (بَلِ ارْتَفَعَ الجَهْلُ) فقط والوجود باقٍ على حاله.

(فَلا تَظُن أَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى الفَنَاءِ) وهو عدم الوجود، (فَإِنَّ احْتَجْتَ إِلَى الفَنَاءِ فَأَنْتَ إِذاً حِجابُهُ) أي محجوب عن المشاهدة لأن الفاني لا مشاهدة له، وحينئذ يفوتك مقامُ الإحسان الذي هو نهاية المقامات وهو قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

(والحِجابُ غيرُ اللهِ تعالَى فَيَلزَم غَلَبَةُ غيرِهِ عليْهِ، ويَلْزَمُ مِنَ الغَلَبَةِ المَنْعُ عَنْ رُؤْيَتِهِ لَهُ) لأنه محجوب والمحجوب بعيد عن حضرة الحق تعالى.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، حديث رقم (50) [1/ 27] ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم (8) [1/ 36] ورواه غيرهما.

(وهٰذَا) أي إضافة معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وفناء الفناء (غَلَطٌ وَسَهْوٌ) أي إذا حمل الفناء على فناء الذات لا على فناء الصفات وقد ذكرنا (مِنْ قَبْلُ أنَّ حِجابَهُ وحدانِيَّتُهُ وفَرْدانِيَّتُهُ لا غيرُ) أي يحجب ذاته بذاته (ولِهٰذَا جَازَ لِلْوَاصِلِ إلَى الحَقِيقَةِ أنْ يَقُولَ: أنَا الحَقُّ) كالحلّاج منصور قدّس سرّه، وأن يقول: (سُبْحَانِي مَا أعْظَمَ شَانِي) كأبي يزيد بن عيسى الطيفور قدّس سرّه.

(ومَا وَصَلَ وَاصِلٌ إلَيهِ إلَّا وَرَأى صِفاتهُ صفاتَ اللهِ تعالى) لفناء صفاته في صفات ربّه ففنيت قدرته في قدرة الله تعالى، وإرادته في إرادة الله تعالى، وهكذا بقية الصفات، ورأى (ذَاتَهُ ذَاتَ اللهِ تَعالَى بِلا كَوْنِ صِفاتِهِ) وَلا ذَاتِهِ (دَاخِلاً) في الله (ولا خارِجاً مِنْهُ قَطُّ) لأنه لا يرى الوجود إلا للواحد المعبود (وكَذَا لَا يَرى) نفسه (أنَّهُ فانٍ فِي اللهِ) سبحانه وتعالى (أوْ بَاقٍ بِالله) جلّ شأنه (وَيَرى نَفْسَهُ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً قَطُّ لا) يرى نفسه (أنَّهُ كَانَ ثُمَّ فَنِي فَإنَّهُ لا نَفْس إلا نَفْسُه) جلّ شأنه عن الاشتباه (ولا وُجُودَ إلا وُجُودَهُ وعلاهُ) ولذا قال قائلهم[1]:

أنتَ إنسانٌ خَيَالي	لكَ عقلٌ كالعِقالِ
أنتَ جسمٌ مِنْ تُراب	فيه روحٌ متلالي
أنتَ في أنتَ كثيفٌ	في لطيفِ الروحِ عالي
ليسَ في الخارجِ شيءٌ	منكَ بلْ لمعةُ آلِ
إنّما الخارج حقٌّ	أمرُ رَبٍّ متعالي
وكذلك الخلقُ طُرّاً	مِنْ نساءٍ ورجال
وسماوات وأرض	وبحار وجبال
كلهم عندك في	صفحة مرآة الخيَال
صُوَرٌ تَبْدُو وتخفى	وهو حق في المجالي
فتحقَّق بك وافهم	قبل محوٍ وزوالِ

(1) القائل هو الشيخ عبد الغني النابلسي المولود سنة 1050 هجرية والمتوفى سنة 1143 هجرية [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

واعرف المعروف تنجو من تناويع الضلال

(وَلِهٰذَا أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللهُ تَعَالَى»[1] أطلقه عليه لأن الدهر اسم لما لا نهاية له، فدخل تحته أسماء من أسمائه تعالى ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية 3] وفي ذلك إشارة إلى الإحاطة الكلية، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: الآية 126].

(وأشارَ) أي النبي ﷺ (إلى أنَّ وُجودَ اللهِ تبارَكَ وتَعَالَى عَنِ الشَّرِيكِ والنِّدِّ الكُفْوِ) محيط بجميع الموجودات (وَرَوى عَنِ الله تعالى أنَّهُ قَالَ: يٰا عَبْدي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، وسَأَلْتُكَ فَلَمْ تُعْطِني)[2] أي مرض عبدي الفقير فلم تعُده، وسألك عبدي الفقير فلم تعطه، وفي هذا تهديد عظيم لمن أنعم الحق عليه في الدنيا بالمال والجاه وبخل بهما، فجعل عقوبته في الدنيا بسلب نعمة المال والجاه عنه، فإنه سبحانه وتعالى جعل في كل عصر كرماء، فإذا بخلوا بما أعطاهم سلب نعمتهم وأعطاها لغيرهم من أهل الكرم، وعقوبة الآخرة بعتابه سبحانه وتعالى يوم القيامة للبخلاء بالمال والجاه، فيسقط لحم وجوههم ثم يعذّبهم في نار جهنم كما أخبر عن ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: الآيتان 34- 35] أي تمنعون الزكاة عن الفقير المريض والعاجز عن الكسب.

(أَشَارَ إِلَى أَنَّ وُجودَ المَرِيضِ وجُودهُ) سبحانه وتعالى (وأَنَّ وُجودَ السَّائِلِ وُجُودُهُ، ومَتَى جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجود السَّائِلِ ووُجُودَ المَرِيضِ وُجُودَهُ) سبحانه

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب النهي عن سب الدهر، حديث رقم (2246) [4/ 1763] ورواه النسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الجاثية: الآية 24]. . .، حديث رقم (11487) [6/ 457] ورواه غيرهما.

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم (2569) [4/ 1990] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الخبر الدال على أن هذه الألفاظ من هذا النوع. . .، حديث رقم (269) [1/ 503] ورواه غيرهما.

وتعالى (جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُكَ وُجُودَهُ ووُجُودُ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ مِنَ المُكَوّنَاتِ) أي الموجودات (مِنَ الأَعْرَاضِ والجواهِرِ وُجُودَهُ هٰكَذَا) أي بالقياس على وجود المريض والسّائل. وقد استدلّ الشيخ قدّس سرّه بهذا على أن الوجود لله تعالى وحده.

(ومَتَى ظَهَرَ سِرُّهُ في ذَرَّةٍ مِنَ الذَّرّاتِ ظَهَرَ سِرُّهُ مِنَ المُكَوّنَاتِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ) أشار بقوله قدّس سرّه: «ومتى ظهر سرّه» إلى أسرار الربوبية فإن الحق تعالى أودع في كلّ شيء سرّاً فإذا كشف سرّاً من أسراره لأحبابه امتدّ هذا الكشف بظهور سرّ بعد سرّ من الموجودات الظاهرة، فبأسرار صفاته القدسيّة أبرز موجوداته الظاهرية، وبأسرار أسمائه العليّة أبرز البواطن الكونيّة، وسرّ الربوبية هو توقفها على المربوب لكونه نسبةً لا بدّ لها من المنتسبين، وأحد المنتسبين هو المربوب وليس إلّا الأعيان الثابتة في العدم والموقوف على المعدوم معدوم، ولذا قال سهل: للربوبيّة سرّ لو ظهر لبطلت الربوبيّة، وذلك لبطلان ما يتوقف عليه، وسرّ سرّ الربوبيّة هو ظهور الربّ بصور الأعيان من حيث مظهريّتها للربّ القائم بذاته الظاهر بتعيُّناتِهِ قائمة به، موجودة بوجوده، فهم عبيد مربوبون من هذه الحيثية والحقّ ربّ لهم، فما حصلت الربوبية في الحق إلا بالحق، والأعيان معدومة بحالها في الأزل، فلسرّ الربوبيّة سرّ به ظهرت ولم تبطل.

(ولا تَرَى في الدَّارَيْنِ) أي في الدنيا والآخرة (سِوَى الله تعالى، بَلْ وجُودُ الدَّارَيْنِ اسْمُهُمَا ومُسَمَّاهُما هُوَ بلا شَكٍّ ولا رَيْبٍ، وَلَا تَرَى أَنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ شَيْئاً قَطُّ) وذلك لنفي وهم التعدُّد والغيرية التي اعتادتها النفوس، ونفي وَهْم الإثنينية وهي النفس مع الربّ تعالى، فوهم التعدد أمر فشا وظهر للخلق وهو باطل، فعليك أن تنفي هذا الوهم أولاً ثم تثبت الوجود الواحد الحق سبحانه وتعالى في باطنك ثانياً بلا ملاحظة سواه تعالى في سائر الأكوان.

(بَلْ تَرَاهُ كُلّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ) كما مضى على ذلك في كتابه العزيز، وقد اتفق أن بعض العلماء كان يقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرّحمٰن: الآية 29] وكان الخضر عليه السلام حاضراً في درسه، فقال: ما شأن

ربك اليوم، فتوقف المدرّس وطلب منه المهلة لردّ الجواب، فأمهله، فجعل يجول في ذهنه فلم يخطر شيء بباله وعجز عن الجواب، فاشتغل بالصلاة على المصطفى رسول ربّ الأرباب ﷺ، فلما نام رأى حضرة المصطفى ﷺ في المنام فأخبره أن السائل الخضر عليه السلام وأن يقول له في الجواب: «شؤون يبديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين» فلما ذكر له الجواب قال له الخضر عليه السلام: صلِّ على الذي علّمك. وفي هذا الجواب سر بليغ في قوله: يبديها، أي يظهرها على طبق ما هي في علمه القديم سبحانه وتعالى لأنه تعالى كتب الأشياء قبل وجودها لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: الآيتان 52- 53]. وفي هذا المحل كلام لو شرحته لطالت الأخبار وخرج الكلام عن الاختصار.

(مِنْ إظْهارِ وُجُودِهِ أوْ صِفاتِهِ بِلا كَيْفِيَّةٍ لأنَّهُ تعالَى هُوَ الأوَّلُ والآخِرِ والباطِنُ والظَّاهِرُ، ظَهَرَ بِوَحْدانِيَّتِهِ وبَطَنَ بِفَرْدانِيَّتِهِ) صفة الوحدانيّة للملك المعبود سلب الاثنينيَّة في عالم الملك والشهود، وصفة الفردانيّة لذي العزّة والجبروت نفي السوى في عالم الغيب والملكوت، فإذا كُشف لك عن معنى الجمع بين هاتين الصفتين صرت من علماء الظاهر والباطن وصرْتَ ذا الجناحين، ويكشف لك عن العالَمَيْنِ، عن العالم العدلي، والعالم الفضلي، فالعالم العدلي ظلمة وكثيف كالعالم السفلي وهي الأرضون السبع فلكثافتها تحجب بها الأنوار كالغيم يحجب نور الشمس. والعالم الفضلي كالعالم العلوي وهو العرش والكرسي والسماوات السّبع، وللطافته لا يحجب الأنوار، فإن الشمس في السماء الرابعة فنورها لا تحجبه السماوات التي فوقها والتي تحتها، فالعالم العدلي ظلمة بمنزلة الليل والعالم الفضلي نور بمنزلة النهار، والإنسان مركب من العالَمين، فجسمه من العالم العدلي وروحه من عالم الفضلي، فإذا غلبت جسمانيّته روحانيته التحق بالعالم العدلي فيصير شيطانياً إنسياً، وإذا غلبت روحانيته جسمانيته التحق بالعالم الفضلي فيصير مَلَكِيّاً إنْسِيّاً، فالتعاقب بينهما دائم فكلما ذهب جزء من عالم العدلي أعقبه جزء من عالم الفضلي حتى تذهب الظلمة ويبقى النور، فتذهب حينئذ صفاتك ولم ترَ وجوداً

لذاتك، وتفهم معنى لا إله إلا الله بنفي ما سواه تعالى، ويظهر لك ليل عالم وجودك العدلي، ونهار عالم وجودك الفضلي، فإذا تكاثفت ظلمات الشرك من نفي لا إله على نهار وجودك الفضلي أذهب نوره وصار عدليّاً، فإذا طلعت شمس الوحدانية على بروج الفردانية من سَمَاءِ (إلّا اللهِ) على وجودك العدلي أذهب ظلمته وصار فضليّاً وأشرقت أرض ذاتك بأنوار توحيدك وانتفى السوى وظهر لك أنه (هُوَ الأَوَّلُ بِذَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ) أي ذاتاً ووصفاً فهو القائم بنفسه لا يفتقر إلى غيره وهو القائم بغيره من خلقه.

(هُوَ الآخِرُ بِدَيمُومَتِهِ) أي بدوامه وبقائه (ووُجُودُ حُرُوفِ الأوّلِ هُوَ وُجُودُ حُرُوفِ الآخِرِ هُوَ ووُجُودُ حُرُوفِ الظَّاهِرِ، ووُجُودُ حُرُوفِ الباطِنِ هُوَ اسْمُهُ ومُسَمَّاهُ) وهذا كالشرح للأسماء الأربعة التي تقدم ذكرها، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن، والظاهر فيها الإحاطة الكليّة لجميع الأسماء والصفات، وبتجلّيه بها أَوْجَدَ جميعَ المخلوقات فلذا قال قائلهم[1]:

ربّي تجلّى بأنواع الخلائق لي	تجليّاً هو كشفُ القولِ والعملِ
فالقول كُنْ فيكون اسْمَعْ مقالتَنا	فإنها لك تَهْدِي أوْضحَ السُّبُلِ
والفعلُ قدرتُه بعد الإرادة لم	يترك من الكون شيئاً غيرَ منفعل
فانظر بعقلك فيما أنتَ تدرِكه	فإنه الخلقَ من عال ومن سُفْل
وانظر إلى ربّك الفعّال ثُمّ إلى	كلامه الحق عَيْنُ الأحرُفِ الأُوَلِ
بالجمعِ قرآنُه والفرقِ أجْمَعه	فرقانه فتحقق فالمقام جلي

وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: الآيتان 17- 18].

واعلم أن الله تعالى (كَمَا يَجِبُ وُجُودُهُ يَجِبُ عَدَمُ مَا سِوَاهُ) أي يجب أن تعتقد أن ما سواه تعالى كالعدم لعدم استقلاله بالوجود (فَإِنَّ الَّذِي تَظُنُّ أَنَّهُ سِوَاهُ لَيْسَ بِسِوَاهُ) لأن جميع الموجودات وجودها بالتبعية لوجوده سبحانه وتعالى لا

(1) القائل هو الشيخ عبد الغني النابلسي [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

وجود لها استقلالاً (لأَنَّهُ تَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ لَهُ) صفة الوجود الحقيقي (بَلْ غَيْرُهُ هُوَ) من جهة وجود الحق (بِلَا غَيْرِيَّةِ الغَيْرِ مَعَ وُجُودِهِ) لأنّ الحادث لا يثبت مع القديم.

قال في الحكم: «يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم» فلا يثبت الغير في وُجُودِهِ (ظَاهِراً وبَاطِناً ومَنِ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَهُ أَوْصَافٌ كَثِيرَةٌ لا حَدَّ وَلَا نِهَايَةَ لَهَا) بالاختصار، فالحق تعالى متصف بكل كمال وكمالاته لا تتناهى، وهو الخالق لعبيده وأفعالهم التي تراها.

وقد شبّه جميع المخلوقات حضرة الشيخ قدّس سرّه بالأموات فلذا قال: (وَكَمَا أَنَّ مَنْ مَاتَ بالمَوْتِ الظَّاهِرِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ جَمِيعُ أَوْصَافِهِ المَحْمُودَةِ والمَذْمُومَةِ، كَذَلِكَ مَنْ مَاتَ بِالمَوْتِ المَعْنَوِيِّ تَنْقَطِعُ عَنْهُ جَمِيعُ أَوْصَافِهِ المَحْمُودَةِ والمَذْمومَةِ ويَقُومُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى مَقَامَهُ فِي جَمِيعِ الحَالاتِ) وهذا مقام لا يصل إليه إلا ما نَدُرَ من أرباب العنايات.

(فَيَقُومُ مَقَامَ ذَاتِهِ ذَاتُ اللهِ تعالَى، ومَقَامَ صِفَاتِهِ صِفَاتُ اللهِ تَعالَى، ولِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا»[1]) أشار بذلك المصطفى الشفيع المشفَّعُ إلى الموتات الأربع: الأحمر والأسود والأخضر والأبيض.

أما الموت الأحمر فهو مخالفة النفس والشيطان والدنيا والهوى ويُكَلِّفُ نفسَه بالعبادة كلَّ عملٍ شاقٍ يعسر عليها ارتكابُه حتى يقطع عقباتها السبعة. وأمّا الموت الأسود فهو وقوع الناس في عِرْضِهِ بحيث لا يتكلم أحد به كَلِمة خيرٍ ما كما وقع لكثير من الأقطاب والأولياء والأنجاب منهم سيّدي أحمد الرفاعي قدّس سرّه حتى رَمَوْهُ بالحجارة، وكان يقول: اللهم اجعلني كالأشجار تُرمى بالأحجار فتكافئ بالأثمار.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2669) [2/ 384] وقال: قال الحافظ ابن حجر هو غير ثابت. وقال القاري: هو من كلام الصوفية. والمعنى موتوا اختياراً بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطراراً بالموت الحقيقي.

ومنهم سيدي أحمد البدوي قدّس سرّه قَنَفُوهُ وسيدي أبو الحسن الشاذلي من الغرب طَرَدُوهُ، ولهم أسوة برسول الله ﷺ فإنه أوذي في الله وصبر كما صبر أولو العزم بلا اشتباه وكان يدعو بالهداية لمن أذاه، فالفقير الصالح لا يفرّق في المحبة والعداوة بين القادح والمادح فهما مستويان، فلذا قلت في تائيتي:

فلا الذمُّ يؤذيني ولا المدح باسِطِي   وعندي استواء الأمران قبضي وراحتي

بل يميل بالمحبة للمنتقد أكثر من المعتقد. وكان سيدي المتبولي يقول: لو سجدت لله على الحجر ووهبتُ ثواب تلك السجدة للمنتقد لما كافَيْتُهُ لِما حصل لي فيه من العطايا والمِنَنِ. وكان سيدي الإمام الشعراني يقول: إذا ادَّعَتْ نفسُ المخلِص الإخلاص فليُجِز بها، فإذا فرَّقَتْ بين المعتقد والمنتقد من أمير أو سلطان أو زبال، فإن رآها فرحت بمدح المادح أو تغيرت بذم القادح، فليعلم من نفسه أنه مُراءٍ فلا يصلح أن يكون مريداً دون أن يكون شيخاً للطريق.

وأما الموت الأخضر فهو سقوط البلاء بعضه على بعض، بشرط عدم الجزع والشكوى إلا لشيخه، فإن ذلك لا يقدح بصبره.

وأما الموت الأبيض فهو الجوع بحيث لا يملك رغيفاً ولا ثمنه، كما وقع لسيدي إبراهيم بن أدهم كان يستديم سفَّ التراب في الأيام العديدة ويقول: إني أجد لذّة سائر الأطعمة فيه.

ولا بدّ لكل مرشد كامل أن يموت هذه الموتات الأربع ليثبت له قدم الوراثة الظاهرية والباطنية لحضرة المصطفى ﷺ ذي الرتبة العلية، فقد حصلت له الأربعة على التمام:

الأولى: فقد أتعب نفسه في الصلاة حتى تورَّمَتْ قدماهُ فأنزل عليه حضرة الحق جلّ علاه بقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: الأيتان 1- 2].

والثانية: لقد تكلم في حقه الكافرون حتى نسبوه إلى عدم العقل فقالوا: معلم مجنون، وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفُرقان: الآية 5] الآية. وأبلغ ما يكون حديث الإفك وهو أسوأ الكذب الذي تكلموا به في حق زوجته

عائشة المطهّرة المبرأة التي نزلت براءتُها في القرآن العظيم رضي الله عنها وعن أبيها وعن محبيه ومحبيها.

والثالثة - أي الموت الأخضر: كان يُوعَك عليه السلام كما يُوعَك العشرة من أصحابه، وقد كُسِرَت رُباعيَّته وشجّ جبينه الشريف.

والرابعة - أي الموت الأبيض: كان يشدّ الحجر على بطنه الشريف أياماً لا يذوق فيها طعاماً، وهذا تعليم منه ﷺ لأمته أفضل الأمم ليُهَذِّبُوا نفوسهم بالجوع فإن الله تعالى لما خلق النفس قال لها: «مَنْ أنَا ومَنْ أنتِ، فقالت: أنت أنت وأنا أنا»، فلما ألقى عليها ألَمَ الجوع خَضَعَتْ وذلَّتْ وذهَبَتْ أنانيّتها وأقرّت بالوحدانية لربّها.

وحيث إن النفس كثيرة النسيان قريبةُ الطُغيان يلزم على صاحبها أن لا يرفع سياسة القلب عنها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشّمس: الآية 9] أي أدّبها وهَذَّبها وعرف دسائسها وأماتها قبل موتها أخذاً من قول المصطفى ﷺ: «مُوتُوا قبل أن تموتوا»[1].

(أي اعْرِفُوا أنفُسَكُم قبلَ أن تَمُوتُوا، أو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَالَ اللهُ تعالَى: لا يَزَال عَبْدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ ولِسَانَهُ ويَدَهُ»[2]) أي يسمع لله ويبصر لله ويتكلم لله تعالى ويعطي ويأخذ لله، فتكون أفعاله كلها لله وبالله، فينتقل من مقام التقرُّب بالأعمال النفلية إلى مقام المقبولية ومنه إلى مقام المحبوبية، فيرى وجوده فانياً في وجود محبوبه.

(أَشَارَ إِلَى أَنَّ مَنْ أَمَاتَ نَفْسَهُ يَرَىٰ جَمِيعَ وُجُودِهِ وُجُودَهُ تَعالَى) أي يرى وجود ذاته هو وجود الله تعالى، وذلك لعدم رؤية وجوده، وهذا مقام الحيرة كقول الحلاج منصور قدّس سرّه؛ أنا الحق. وقول أبي يزيد: سبحاني،

---

(1) هذا الأثر سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6136) [5/ 2384] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله تعالى. . .، حديث رقم (347) [2/ 58] ورواه غيرهما.

وأمثالها فإنها كلها في مقام عين اليقين قبل الوصول إلى حق اليقين، فإذا عبروا عن ذلك المقام وصلوا إلى مقام حق اليقين يتحاشون عن أمثال هذه الأحوال فيرون الحق والخلق في آن واحد فلا يحجبهم شهود أحدهما عن الآخر، وهذا هو مقام الإحسان.

وكان سبب وصول المؤلف قدّس سرّه إلى هذا المقام حضرة سيدنا هارون عليه السلام، فإنه قال: اجتمعت روحي معه في بعض الوقائع فقلت: يا نبيّ الله كيف قلت: فلا تشمت بي الأعداء، ومن الأعداء حتى تشهدهم والواحد منا يصل إلى مقام لم يشهد فيه إلا الله تعالى، فقال له السيد هارون عليه السلام: صحيح ما قلت في مشهدكم ولكن إذا لم يشهد أحدكم هل زال العالم في نفس الأمر كما هو مشهدكم أم العالم باقٍ، وحجبتم أنتم عن شهوده لعظم ما يتجلّى لقلوبكم، فقلت: بل العالم باقٍ في نفس الأمر لم يزل وإنما حجبنا عن شهوده، فقال: قد نقص علمكم بالله تعالى في ذلك المشهدِ بقدر ما نقص في شهودكم من العالَمِ. فأفادني عليه السلام علماً لم يكن عندي.

فإذا وصل العبد إلى هذا المقام يقطع عقبات المشاهد والأعلام، رجع من النهاية إلى البداية، وصار ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق. وقد أشرت إلى ذلك بقولي:

وسرى إلى روحي وروحي به سَرَت	إلى السرّ حتى تبدَّت بدايتي
فعُدْتُ إليها شاكراً كل فضيلة	وتبتُ حقيقةً توبَةَ الموسويّة

فالعود إلى البداية هو مقام الوراثة الدالة عليه خبر «العلماء ورثة الأنبياء»[1]، فالعلم الذي بقي من ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نوعان: علم الأحكام، وعلم الأسرار. والوارث من له نصيب من النوعين، ومن له نصيب من نوع واحد فليس بوارث، فهو داخل في الغرماء الذين تعلق نصيبهم

(1) رواه ابن حبان في الصحيح، ذكر وصف العلماء الذين لهم الفضل. . . ، حديث رقم (88) [1/ 289] ورواه أبو داود في السنن، باب الحث على طلب العلم، حديث رقم (3641) [3/ 317] ورواه غيرهما.

بجنس حقهم، فإن الوارث بواسطة القرب والجنسية يقال فيه: إنه مثل مورثه، بخلاف الغريم فإنه لا نسب له، فالذي لا يكون وارثاً لا يكون عالماً إلا إذا خصّص بنوع واحد فنقول: عالم بعلم الأحكام.

والعالم المطلق من ورث من النوعين نصيباً وافراً بعد قطع صفات النفس السبعة التي تسمى بالأمّارة واللوّامة والملهمة والمطمئنة والرّاضية والمرضيّة والكاملة، فكلّما اتّصفت بصفةٍ سُمِيَّت لأجل اتصافها بها باسم من هذه الأسماء، فإن صادفت النفس الشهوانية ووافقتها ودخلت في حكمها سميت أمّارة، وإن سكنت تحت الأمر التكليفي وأذعنت لاتباع الشريعة لكن بقي فيها ميل للشهوات سمّيت لوّامةً، فإن زال هذا الميل وقويَتْ على معارضة النفس الشهوانية وزاد ميلها إلى عالم القُدس وتلقَّت إلهامات سمِّيت مُلْهِمَةً، وإن سكن اضطرابها ولم يبق فيها للنفس الشهوانية حكم أصلاً ونسيت الشهوات فتسمّى مُطْمَئِنَةً، فإن ترقّتْ عن هذا وسقطت المقامات من عينها وفَنِيَتْ عن جميع مراداتها سمّيت رْاضِيَةً، فإن زاد هذا الحال عليها صارت مَرْضِيَّةً عند الحق والخلق، فإن أمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم وتكميلهم سمّيت كاملة.

فقطع الصفات هي قطع العقبات، ولكل طريقة اصطلاح في قطع هذه العقبات، فقطعها في الطريقة النقشبندية بقطع اللطائف السبعة التي هي لطيفة القلب، ولطيفة الروح، ولطيفة السرّ، ولطيفة الخفي، ولطفية الأخفى، ولطيفة النفس، ولطيفة الجسد، وتأكيد قطع هذه العقبات بالاشتغال بالنفي والإثبات.

ولكل لطيفة محل ونور ووارد، وتحقيق ذلك وكيفيّته الخلوة فيها مذكورة في كثير من رسائلي، فراجعها إن شئت.

وقطعها في بعض الطرق بالتنقل في الأسماء السبعة، وفي بعضها بعرضها الشيخ للمريد كطريقة سيدي الشيخ الأكبر قدّس سرّه الأفخر، وفي بعضها بنظر الشيخ للمريد نظر محبة كطريقة سيدي الشريف العلوي والقطب النبوي السيد أحمد البَدَوي قدّس الله تعالى سرّه.

وفي بعضها بفيضان العلم بالمحاذاة التامة الصحيحة كالطريقة الأحمدية

والخالدية، فيمتلىء المريد علماً بالمحاذاة وإن لم يسمع ما يقوله الشيخ كما كان يقع وقت حضور درس العلم عند شيخنا العارف بالله تعالى السيد الشيخ خالد ضياء الدين قدّس الله سرّه، فكنت أستغرق في حضرته لا أسمع ولا أرى وعند حضوري إلى المدرسة البدارية في دمشق المحمية يسألني بعض العلماء عما قرّره الشيخ قدّس سرّه فأجد ما قاله وزيادةً في حفظي فأقرر له ذلك، فيتعجب.

وكنت قبل أخذ الطريقة النقشبندية وأنا مجاور في جامع الأزهر في مصر المحروسة، قد اعتراني داء شديد حتى يبست رجلاي وكان يخرج منها عروق مقطعة وصرت لا أقدر على المشي وكنت أزحف من رواق الشام إلى محل الدرس في الجامع الشريف فلا أقدر على الجلوس، وكنت أنام خلْفَ الشيخ وكانت روحي تحضر الدرس فتحبه فتنظمه فأستيقظ عند فراغ الشيخ قدّس سرّه وأسمعه نظم الدرس فيتعجب من ذلك وأنا مع هذا البلاء في غاية الصبر، فسمعت في بعض الأيام قائلاً يقول كلاماً وهو لا يراني، فانكسر من ذلك خاطري فتوسلت بمحمّد المصطفى ﷺ بقصيدة عملتها أستغيث به فيها، فأصبحت صحيح الجسم معتدل القامة أحسن مما كنت قبل ذلك بأضعاف، فرآني الذي كان بجواري فأقسم بالله أن رجليك هاتين ليستا رجليك الأوّليين، فأخبرته الخبر فتعجب وجعل يصلي على أفضل البشر ﷺ.

والدليل على العلم الوهبي قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية 65].

واعلم أن عَوْدَ السادات إلى البدايات لا يكون إلا بعد قطع هذه العقبات، فإذا قطعوها صار حالهم كحال العوام، وعلمهم كعلم علماء الظاهر بالفرق بين العلمين أن علمهم عن كشف ووجدان ينزل به وحي الإلهام على طور قلبهم من حضرة الملك الرحمٰن جلّ علاه، وعلم علماء الظاهر الذي تلقُّوه عن بعضهم فهو عن تخمين وشكّ في الجنان.

وقلت على لسان القوم ذوي العرفان:

من ابن السعد والرازي وجرجاني ... ما ندر في العلم من كشف وإتقاني

فهم يقولون عن تخمين عقلهم ... وينقلون العلم القالي عن فاني
وعلمنا أبداً عن ربّنا فلذا ... ترى أنّ العلم في أغصانه داني

ثم قال الشيخ قدّس سرّه: (ولا يَرىٰ تَغَيُّراً في ذٰاتِهِ وصِفاتِهِ) أي لا يرى أن ذاته تبدلت ولا صفاته تغيّرت بل يرى نفسه كما كان في السابق وهو في حالة العدم، وهذا الحال لا يعرفه إلا من ذاقَهُ (ولٰا يَحْتَاجُ إِلٰى تَغَيُّرِ صِفاتِهِ) لعدم رؤية وجودها فإنه يحتاج إلى تغيرها (إذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ هُوَ وُجُودُ ذاتِهِ لَمْ يَكُن عٰالِماً بِذاتِهِ) بل كان يرى أن له وجوداً مستقلاً، وهذا مستحيل، فإن الوجود بالاستقلال لا يكون إلا لذي المجد والجلال (بَلْ كانَ جٰاهِلاً بمعرِفَةِ نفسِهِ، فمتّى عَرَفْتَ نَفْسَكَ ارْتَفَعَتْ إِثْنَيْنِيَّتُكَ) فلذا قال قائلهم:

فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذا واحد نحن هيئتي

أي بسبب رفع الاثنينية وكشف فناء الشبهة عن الذات الواحدة الموصوفة بصفاتها المنعوتة بأخلاقها، كل وصف مضاف إليّ هو وصفها، وكل هيئة وصورة خلق مضاف إليّ فهو هيئتها (وعَرَفْتَ أنّكَ لَمْ تكُن غَيْرَ اللهِ تعالىٰ) باعتبار تعلق وجودك في علمه القديم على هذه الهيئة التي أنت فيها الآن وعدم وجودك بالاستقلال (فَإِنْ كانَ وُجودٌ مُستَقِلٌّ لا يَحتاجُ إِلى الفَناءِ ولا إلى مَعْرِفَةِ النَّفْسِ فَيَكُونُ) وجودك المستقل (رِبّاً سِوٰاهُ) تعالى وهذا مستحيل (تَبارَكَ) وتنزّه (اللهُ) تعالى (أَنْ يُوجَدَ رَبٌّ سِوٰاهُ) لقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية 22].

(ففٰائِدَةُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ أَنْ تَعْلَمَ وتُحَقِّقَ أَنَّ وُجودَكَ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ) أي وجوداً استقلاليّاً لتوقف وجودك على وجود موجدك (ولا مَعْدُومٍ) عدماً حقيقياً لتعلق علمه تعالى بوجودك (وأنّكَ لَسْتَ كٰائِناً) أي موجوداً (ولاَ كُنْتَ قَطُّ) في الماضي (ولا تَكُونُ، ويَظْهَرُ لَكَ ذٰلِكَ بِمَعْنَى لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ أَنْ لا إِلٰهَ غَيْرُه) أي لا معبود إلا هو (ولا وُجُودَ لِغَيْرِهِ) وجوداً استقلاليّاً (فَلا غَيْرَ سِوٰاهُ) أي فلا وجود لشيء بالاستقلال حتى يقال إنه سواه.

وقد أشار الشيخ قدّس سرّه بهذا الترتيب من قوله: لا إلٰه إلا الله إلى

آخره، إلى السفرات الثلاث، السفرة الأولى في علم اليقين المفهومة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: الآية 19].

والسفرة الثانية: في عين اليقين، المشار إليها بقوله جلّ وعلا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: الآية 17] أي عمّا رآه.

والسفرة الثالثة: إلى حق اليقين المبنيّة عليها في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: الآية 91] أي دع ما سواه. وفي ذلك قال قائلهم:

أسافِرُ عين علم اليقين لعَيْنهِ إلى حقّهِ حيث الحقيقة رِحلتي

أي أسافر في علم اليقين الذي عقد ذهني مطابق للواقع بلا اضطراب بعلم أن لا إلٰه إلا الله الملكُ العزيزُ الوهابُ حتى أصِلَ إلى عين اليقين الذي هو مشاهدة ربّ الأرباب بلا حجاب وأجُوز منها إلى الحق اليقين وهو الاتحاد بعد الاقتراب. فعلم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين حال جمع الجمع، فالتفرقة شهود الأغيار والجمع شهود الملك الجبّار، وجمع الجمع هو الاستهلاك في وجود الفاعل المختار.

فعلم اليقين لعلماء الظاهر، وعين اليقين للأولياء الأكابر، وحق اليقين للأنبياء المعصومين عليهم الصلاة والسلام ولورثتهم العلماء العاملين الكاملين، وحقيقةُ حق اليقين مختصة بنبيّنا محمد المصطفى ﷺ وهي أعلى مراتب أهل الصفاء، وللمشايخ أقوال كثيرة في تلك الأسفار، وكلّ إنسان منهم يتكلم عليها بحسب مقامه أو بالاختصار.

والحاصل أن الحق سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود بلا اشتباه وهو الواجد (لا إلٰه إلا إيّاه فإنْ قالَ قائِلٌ: فَعُلِّلَتْ رُبُوبِيَّتُهُ، فالجوابُ أنّى) أي كيف (تُعَطَّلُ ربوبيته فإنه لم يَزَلْ ربّاً ولا مَرْبُوبَ) موجود (ولَمْ يَزَلْ خالِقاً ولا مَخْلُوقَ) في الوجود (وَهُوَ الآنَ) كما كان قبل كون الأكوان، صفاته ملازمة لذاته تعالى (لخالِقِيَّتُهُ وَرُبُوبِيَّتُهُ) هو خالق وربّ قبل خلق المخلوقين والمربوبين (لا يَحْتاجُ إلى مَخْلُوقٍ ولا إلَى مَرْبُوبٍ، فَهُوَ قَبْلَ تَكْوِينِ المُكَوَّنِ) الألف واللام للجنس فيعمّ جميع المكوّنات أي الموجودات (كانَ مَوْصُوفاً بِجَمِيعِ أَوْصافِهِ) الكماليّة،

فإن أوصافه تعالى لا حصر لها لدى أهل المعارف القلبية والمذكور منها لدى أهل السنَّة والشريعة المحمدية خمسون عقيدة مع ما يجب اعتقاده في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فمِمّا يجب له عزّ وجلّ عشرون صفة: الوجود، والقدم، والبقاء، والحياة، ومخالفته للحوادث ذاتاً وصفةً وأفعالاً، وقيامه بنفسه أي لا يفتقر إلى محلّ كالجرم والجوهر والعرض والصفة، ولا مخصّص يخصصه بالوجود والوحدانية أي لا ثاني له ولا تعدُّد ذاتاً أو أفعالاً، والقدرة والإرادة المتعلقان بجميع الممكنات والعلم والكلام الذي ليس بحرف ولا صوت المتعلقان بسائر أقسام الحكم العقلي والسمع والبصر المتعلقان بجميع الموجودات وكونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحيّاً وسميعاً وبصيراً ومتكلّماً، ومما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أضداد العشرين المذكورة وما في معنى تلك الأضداد، وأما الجائز في حقه سبحانه وتعالى ففعل كل ممكن أو تركه.

وأما الواجب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهو الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ويستحيل في حقهم الكذب والخيانة والكتمان والبلادة، ويجوز في حقهم ما يجوز في حق سائر الناس من الأغراض البشرية مما لا يؤدّي إلى نقص في مراتبهم العليّة كالمرض ونحوه.

ويجمع معاني كل ذلك قولنا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويدخل فيها الإيمان بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملائكة عليهم السلام والكتب السماوية واليوم الآخر وما يجري فيه، وبجميع ما أخبر عنه ﷺ لأنه جاء مصدّقاً لجميع ذلك، فالحق تعالى موصوف بجميع أوصاف الكمال (وَهُوَ الآن كَمَا كانَ فَلا تَفَاوُتَ بَيْنَ الحُدُوثِ والقِدَمِ) في علمه سبحانه وتعالى لأنه محيط بها إحاطة واحدة فلم يزل عالماً بذاته وصفاته ومدركاً لجميع معلوماته حال عدمها كما يدركها الآن حال وجودها واستوى (فِي وَحْدَانِيَّتِهِ) الوجود والعدم والحاضر والغائب، فلا واحد في ذاته وصفاته وأفعاله إلا هو (الحُدُوثُ مُقْتَضىٰ ظاهِرِيَّتِهِ) لقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً

فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتجلّيت إليهم بالنّعم حتى عرفوني»(1).

(والعدمُ مُقْتَضِىْ باطِنِيَّتِهِ) أي عدم رؤية الحوادث له لأن الحادث لا يرى القديم ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وقال في الحكم: إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك وإنما احتجب بشدة ظهوره وخفي عن الأبصار بعظم نوره (ظَاهِرُهُ بَاطِنُهُ وبَاطِنُهُ ظَاهِرُهُ أوَّلُهُ آخِرُهُ وآخِرُهُ أوّلُهُ) هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن (والجَمِيعُ وَاحِدٌ) لأنها أسماؤه وصفاته، والمخلوقات صفات صفاته، فالخالق يستلزم مخلوقاً، والرازق يستلزم مرزوقاً وهكذا. قال قائلهم:

من شدّة القرب مني	ظننت أنك أنّي
فقلت ما قلت جهلاً	وذاك من سوء ظنّي
وحين حقّقتُ أمري	والوهم قد زال عني
تركتُ هذا وهذا	ثم الفناء صار فنّي
وصرتُ عن غيب غيب	بما أقول أكنّي
وزال عنّي ترجّي	علمي به والتمنّي
والعلم كالجهل عندي	فيه وزال التعنّي
إذ كلّ ذلك خلق	والخلق ما عنه يغني
وليس يشبهُ ربّي	شيء فكُن في التهنّي
أنا الموحّد ذوقاً	فخلّني يا مثنّي

فعلم من هذا أن وجود الجميع واحد (والوَاحِدُ جَمِيعٌ) لقيام الجميع به (كَانَ) جلّ شأنه وصفته (كُلّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) أي كل لحظة، فالمراد من اليوم مطلق الزمان، فشؤونه في كلّ يوم لا يعلمها إلا هو فيوجد ويعدم ويعزّ ويذلّ ويغني ويفقر ويعطي ويمنع.

(وما كَانَ مَعَهُ شَيْءٌ سِوَاهُ) وذلك بتعلق إرادته (وَهُوَ الآنَ كَمَا كَانَ) منفرداً بذاته وصفاته وأفعاله، فيبرز بقدرته ما تعلّقت به إرادته ولا وجود لما سواه في

---

(1) أورده بنحوه العجلوني في كنز الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

الحقيقة كما كان في الأول، أي لا وجود لسواه الآن وجوداً حقيقياً كما كان كذلك قبل إيجاده الحوادث، لا وجود لسواه مطلقاً.

(وَفِي القِدَمِ ازَلاً وأَبَداً كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، وَهُوَ الآن كمَا كَانَ) أي كل يوم هو في شان (وَلا شَيْءَ مَوْجُودٌ فَهُوَ الآن كَذٰلِكَ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأنٍ، ولا شَيْءَ ولا يَوْمَ كَمٰا لَمْ يَكُنْ فِي القِدَمِ شَيْءٌ وَلا يَوْمٌ) فلا يتصور أن يكون لشيء معه تعالى زمان، فلذا قال في الحكم: يا عجباً كيف يظهر الوجود في العَدَمِ أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وَصْفُ القِدَمِ.

(فَوُجُودُ المَوْجُوداتِ وعَدَمُهٰا سِيّان) أي مستويان لأنه سبحانه وتعالى لا حاجة له في وجودها. وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: الآية 56] فهذه اللام ليست بلام العلة بل هي لام الصيرورة والمآل أي خلقتهم بإرادتي لا لعلة ولا لنفع يعود إليّ فآلَ أمرهم إلى عبادتي، فلذا قلت في كتابي «فصل الخطاب ونُزهة أولي الألباب»: اعلم أن الله تعالى خلق الخلق لا لعلة مقتضية لفعله لأن ذلك محال في حقه تعالى لما فيه من استكماله بغيره، والنصوص شاهدة بذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: الآية 56] فالمعنى قرنتُ الخلق بالعبادة أي خلقتهم وفرضتُ عليهم العبادة، فالتّعليل لفظيٌ لا حقيقي، لأن الحق تعالى مستغنٍ عن المنافع، فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره لأنه تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل، أو أن المراد إلا لِيُوحّدُوني، فأما المؤمن فيوحّد اختياراً في الشدّة والرّخاء. وأما الكافر فيوَحّدُ اختياراً في الشّدّةِ والبلاء دون النّعمة والرّخاء. وقال مجاهد: معناه إلا ليعرفوني لأنه لو لم يخلقهم لم يعرفوا وجوده وتوحيده تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرُف: الآية 87] فدلّ ذلك على أن الحق تعالى أوجد الموجودات لا لعلة وحينئذ وجودها وعدمها سيّانِ.

(وإلا لَزِمَ طَرَيٰانِ طَارِئٍ) أي طلوع طالع وحدوث حادث لم يكن، ويلزم

أنه (لَمْ يَكُنْ وَحدانِيَّتهُ وذٰلِكَ نَقْصٌ) وهو مستحيل (وَجَلَّتْ وحْدانِيَّتُهُ عنْ ذٰلِكَ) أي عن النقص والطريان.

(وَمَتَى عَرَفْتَ نَفْسَكَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ) أي إنك قائم به سبحانه وتعالى لا بنفسك، وأن وجودَك وعدمك سيّان (مِنْ غَيْرِ إضَافَةِ نِدٍ) أي مثل (وكُفوٍ) أي نظير (وشَرِيكٍ إلى اللهِ تَعالَى فَقَدْ عَرَفْتَهَا بِالحَقِيقَةِ ولِذٰلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[1]).

اعلم أن معرفة النفس تختلف باختلاف العارفين، فمعرفة سيدنا محمد المصطفى ﷺ لنفسه أبلغ من معرفة غيره بأضعاف الأضعاف، وكذلك معرفته لربّه (وَلِذَا لَمْ يَقُلْ: مَنْ أَفْنَى نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) لأن اعتبار الفناء لا يكون إلا بعد الوجود الحقيقي ولا وجود في الحقيقة إلا لربّ الخليقة.

(فَإنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلِمَ وَرَأَى أَنْ لا شَيْءَ سِوَاهُ) تعالى له وجود حقيقي (ثُمَّ أَشارَ محمّد ﷺ) ذو العزّ والجاه (إلى أَنَّ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ هِيَ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعالىٰ، أيْ اعرِفْ نَفْسَكَ أيْ وُجُودَكَ) بعدم الاستقلال واعلم (أَنَّكَ لَسْتَ أَنْتَ) القائم بنفسك (ولٰكِنَّكَ لا تَعْرِف) حقيقة ذلك قبل وصولك (أيْ اعْرِفْ أَنَّ وُجُودَكَ لَيْسَ بِوُجُودِكَ) حقيقة لقيامك بموجدك (ولا غَيْرُ وُجُودِكَ) وقد تقدم معنى ذلك، وسيأتي بقوله: وجودك وعدمك وجوده، فوجودك (لا بِمَوجُودٍ) بالاستقلال (وَلا بِمَعْدُومٍ) لتعلق علمه تعالى بوجودك لأن علمه سبحانه وتعالى قديم ووجودك (لا غَيْرُ مَوْجُودٍ وَلا غَيْرُ مَعْدُومٍ) أي لا يوصف بالوجود الحقيقي ولا بالعدم الحقيقي (وُجُودُكَ وعَدَمُكَ وُجُودُهُ بِلا وُجُودٍ) حقيقي لوجودك لقيامك به (ولا عَدَمٍ) حقيقي لتعلق علمه تعالى بإيجادك (لِأَنَّ عَيْنَ وُجُودِكَ) وعين (عَدَمِكَ وُجُودُهُ ولِأَنَّ وُجُودَهُ) سبب (وُجُودِكَ) وسبب (عَدَمِكَ) لأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: الآيتان 26- 27].

(فَإِذَا رَأَيْتَ الأشْيَاءَ لا غَيْرَ) أي بانفرادها (فَيَكُونُ وُجُودُكَ وُجُودَهُ) أي اضمحلّ وجودك في وجوده تعالى فرأيت الأشياء به لا بنفسك (فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2532) [2/ 343].

عَيْنَ) أي ذات (وُجُودِهِ) الحقيقي المستقل (وُجُودُكَ) لقيامك به (وَعَدَمُكَ في الأَشْيَاءِ) المعدومة (بِلا رُؤْيَةِ) وجود (شَيْءٍ آخَرَ مَعَ اللهِ) تعالى في الوجود (وقيامه في الله أنّها) أي الأشياء (هُوَ) أي مع اعتقادك هذا بلا رؤية أن الأشياء ذات الله تعالى (فَقَدْ عَرَفْتَ نَفْسَكَ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ النَّفْسِ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ) أي بعدم الوجود المستقلّ (هِيَ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعالَى بِلا شَكٍّ) الشكّ ضدّ اليقين وإذا انتفى ثبت اليقين.

(وَلا رَيْبٍ) أي ولا شك فهو توكيد معنوي (للمنفي ولا تَرْكِيب شَيْءٍ مِنَ الحُدُوثِ مَعَ القِدَمِ وَفِيهِ) أي ولا تركيب فيه (وَبِهِ، فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ: كَيْفَ السَّبِيلُ إلى وِصَالِهِ وَقَدْ أَثْبَتَّ أَنْ لا غَيْرَ سِوَاهُ، والشَّيْءُ الوَاحِدُ لا يَصِلُ إِلَى نَفْسِهِ) الجواب نقول: (لا شَكَّ أَنَّ في الحَقِيقَةِ لا وَصْلَ) فقد اختلفت أقوالهم في تعريف الوصل فعبر عنه كل واصل بما حصل له من التجلي فقال بعضهم: هو فناء العبد بأوصافه في أوصاف الحق تعالى. وقال بعضهم: هو الوحدة الحقيقية الواصلة بين البطون والظهور. وقال بعضهم: هو سبق الرحمة بالمحبة المشار إليها في قوله تعالى: «فأحببت أن أُعرف» إلخ.

وقال بعضهم: هو عبارة عن قيومية الحق تعالى للأشياء فإنها تصل الكثرة بعضها ببعض حتى تتحد.

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه: من عرف الفصل من الوصل والحركة من السكون فقد بلغ القرار في التوحيد. ويروى في المعرفة. والمراد بالحركة بسط الوجود على أعيان الممكنات لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: الآية 45] الآية. والمراد بالسكون القبض المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: الآية 46].

وقال بعضهم: المراد بالحركة السلوك، وبالسكون القرار في أحدية الذات. وقال الختم الجليل قدّس سرّه: الوصل إدراك الغائب.

اعلم أن لكل أحد حال جامع لخصوصيات الأنفاس الفائتة، فإن النَّفَسَ الرحماني الذي هو الممد الوجودي الفائض مع تجدد الأنفاس إذا مرّ على نفس ثم على نفس بعده اكتسب خصوصية في كل نفس منها، فإذا انتبه مَنْ فاتَتْ منه

الأنفاس، فأدرك النفس الرحماني من حيث كونه حصّة نفسِهِ جاءَتهُ العناية الإلٰهية فأدرك الأنفاس الفائتة كلها، بمعنى أن كون النفس الرحماني في نفسه حال تُنَسّيهَ لخصوصيات الأنفاس الفائتة، ومن أدرك الخصوصيات لم تَفُتْهُ الأنفاس في الحقيقة، فيكون ممن أدرك الفائت.

ثم قال الشيخ قدّس سرّه: (ولا فَصْل) فإنه إذا انتفى الوصل انتفى الفصل أيضاً (فإنَّ الوِصالَ مُحْتاجٌ أن يكونَ بيْنَ اثْنَيْنِ مُتساوِيَيْنِ أوْ غيرُ مُتساوِيَيْنِ، فإنْ كانا مُتساوِيينِ فهُما سِيَّانٌ) أي مستويان مماثلان (وإنْ كانا غيرِ مُتساوِيينِ فهُمَا ضِدَّانِ) والمماثلة مستحيلة في حق ربّ البريّة (وَهُو تعالى مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يكُونَ لهُ ضِدٌّ أو نِدٌّ، فالوِصالُ في غَيْرِ الوِصالِ) اعلم أن الوصال والوصل والوصلة تدل على اجتماع بين الشيئين بعد الاقتران، وكل ذلك مستحيل في حقه تعالى (والقُرْبُ في غيرِ القُرْبِ) لأن القرب والمعية منه تعالى يُحْملان على القرب والمعية العلمية، كما مشى عليه علماء الظاهر. أو نقول: إن القرب والمعية لا يعلم كيفيتهما إلا الله تعالى، فإنه أثبتهما لنفسه كما قال عزَّ شأنه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: الآية 85]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4].

(والبُعْدُ في غيرِ البُعْدِ، فيَكُون وَصْلٌ بِلا وَصْل وقُرْبٌ بِلا قُرْبٍ، وبُعْدٌ بِلا بُعْدٍ، فإن قِيلَ فهِمْنا الوَصْلَ بِلا وَصْلٍ، فَمَا مَعْنَى القُرْبِ بِلا قُرْبٍ والبُعْدِ بِلا بُعْدٍ) لأن هذا في الظاهر كالجمع بين الضدّين.

(أقولُ أعْنِي أنَّكَ فِي أوَانِ القُرْبِ والبُعْدِ لمْ تَكُنْ شَيْئاً سِوَى الله تعالَى) أي لم تكن شيئاً له وجود حقيقي بل وجودك وعدمك سيّان، فذاتك وفعلك مخلوق لخالقك، وحقيقة الوجود للملك المعبود، ولذا لقال قائلهم:

هي الحقيقة كلُّ الكائنات لها	فيا خسارَةَ مَنْ عنها تراه لها
هامتْ بها في السّوى كلُّ القلوب ولم	تَشْعُرْ وقد شَغَفَتْ في حُبّها وَلَها
هُويةٌ قد سَرَتْ في كلِّ كائِنَةٍ	من غيرِ ما سَرَيانٍ أمرها اشْتَبَها
هبْ أنّك الغير يا محجوبُ قُمْتَ بِمَنْ	ألم تكن ساعةً للحق مُنْتَبِها

هـذا الـوجـود بـه الأكـوانُ قـائِـمـةٌ فحقِّق الفرقَ واجمَعْ واترُك الشُّبَها
هَفا بِكَ الفرقُ من أوْجِ الكَثِيبِ فَقِفْ أنتَ الوَبِيصُ وعنك الطَّرْفُ منك سَهٰا
هُنِيتَ بالوجد عنه الطرف مُرتفِع وقَدْ أُنيلَ علوماً فيهِ مَنْ فَقَهٰا
هَزَمْتَ جَيْشَ السِّوى والنُّورُ مِنْ قِبَلي حتّى مسحتُ به عن ناظري الكَمَها
هناك زالت رُسُومي وانمحتْ سِمَتي وعقد كُلّي على أيدي الوجود وَهٰا
هِدايةٌ هي محضُ الفضلِ قد تُلِيَتْ آيـاتُـهـا فـأرتـنـا رتـبـةَ الـنُّـبَـهٰـا

وقد تكلم بعضهم عن هذه الحقيقة ومثّل بالكلمة، فإنها سارية في جميع أقسامها، من الاسم والفعل والحرف. وكذا في أقسام الأقسام من الماضي والمضارع والأمر والنهي والمصدر واسم الفاعل والمفعول والمستثنى المتصل والمنقطع، والحال والتمييز، والثلاثي والرباعي والخماسي والسداسي، والحروف الجارة والناصبة، والحروف المختصة بالأسماء أو بالأفعال، والحروف الداخلة عليها إلى غير ذلك من الأقسام الحاصلة من التقسيمات التي لا نهاية لها.

فهذه الأقسام كلها ليست غير الكلمة بل هي اعتبارات مندرجة تحتها ما زادت في تفصيلها عن الكلمة شيئاً، ولهذا يصدق على كل فرد من أفراد هذه الأقسام أنه كلمة فنقول: الاسم كلمة، والفعل كلمة، والحرف كلمة، فصحَّ الإسناد، ولكن لكل مرتبة من المراتب اسم يختص بها أحكام لا توجد في غيرها، فإن الدالَّ على المعنى بالاستقلال مع الاقتران بالزمان فعل، وبغير الاقتران اسم، وغير الدّال على المعنى الاستقلال حرف، وكذا المقترن بالزمان الماضي، فعل ماضٍ، وبالزمان الحال والاستقال فعل مضارع، وما وجد فيه علتان من العلل التسعة المشهورة فغير منصرف وإلا فمنصرف.

وحروف عملها الجارّ جارة وحروف عملها النصب ناصبة، فإطلاق اسم مرتبة على مرتبة أخرى، وإجراء أحكام إحديهما على الأخرى، كإطلاق الفعل الماضي على المضارع، والمنصرف على غير المنصرف، والجارة على الناصبة خطأ ظاهر مع أن المراتب كلها ليست إلا الكلمة. وكذلك مراتب الوجود الحق

تعالى، فإطلاق مرتبة على مرتبة أخرى، أو إجراء أحكام مختصة بمرتبة على مرتبة أخرى زندقة، كوصف واجب الوجود بصفات الحوادث وبالعكس.

ولهذا تكلم كل عارف من أهل المشاهدة بوحدة الوجود بحسب مقامه ومعرفته خوفاً من الوقوع في الزندقة، فمن لم يشهد مشهدهم لا يجوز له الاعتراض عليهم، وليعمل بقول الشاعر:

إذا لم تَرَ الهلالَ فسلِّم ... لأناسٍ رَأَوهُ بالأبصار

فمراتبهم قدّس الله أسرارهم ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وقد تقدم تفصيل ذلك.

وأما مراتب الوجود فكثيرة، وعدّ منها كل عارف بحسب وقته، وقد ذكر منها بعضهم ستّ مراتب:

فالمرتبة الأولى مرتبة اللاتّعيين وتسمى الإطلاق الحقيقي، ومرتبة الذّاتِ البحتِ أي الخالص لا بمعنى أن قيد الإطلاق والتعيين ثابتان في تلك المرتبة، بل ذلك الوجود مطلق بالإطلاق الحقيقي سبحانه وتعالى منزّه عن إضافة النعوت والصفات إليه، ومقدّس عن كلّ قيد حتى عن قيد الإطلاق أيضاً، وهذه المرتبة تسمى الأحدية، وهي كنه ذات الحق تعالى، وليس فوقها مرتبة أخرى للحق تعالى.

والمرتبة الثانية مرتبة الحضرة الإلٰهية، وهي الحضرة الواحديّة، وهي عبارة عن علمه تعالى بذاته وصفاته وجميع مُحْدثاته.

والمرتبة الثالثة مرتبة الأرواح المجردة وفيها إبراز الأرواح في الأزل كالذّرّ وخطابُ الحق تعالى بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: الآية 172]، وهنا كلام يطول شرحه لا يحتمله هذا المختصر.

والمرتبة الرابعة مرتبةُ النفوس العاملةِ، وهي عالَم المثال وعالَم الملكوت.

والمرتبة الخامسة مرتبة عالم الملك، وهي عالم الشهادة.

والمرتبة السادسة مرتبة الكون الجامع، وهي الإنسان الكامل الذي مَجْلَى الجميع وصورةُ جمعيَّته.

والترتيب في هذه المراتب اعتبار عقلي للتمييز بينها، ولو كنت عالماً بهذه المراتب وعارفاً بنفسك لكنت عارفاً بالله تعالى.

(ولكِنَّكَ لمْ تَكُنْ عارِفاً بِنَفْسِكَ وَلَمْ تَعْلَمَ أنَّكَ هُوَ) من حيث تعلق علمه تعالى بك (بِلا أنْتَ) أي قبل وجودك الفاني (ومتى وَصَلْتَ إلَى اللهِ تعالى، أي عَرَفْتَ نَفْسَكَ بِلا) أي بغير (وُجُودِ حُرُوفِ العِرفانِ) التي يفهم من تركيبها معنى المعرفة، فتكون مطموس الوجود (عَلِمْتَ أنَّكَ كُنْتَ إيَّاهُ) أي ثابتاً في علمه، وعلمه ذاته تعالى (وما كُنْتَ تَعْرِفُ قَبْلَ) ذلك (أنَّكَ هُوَ) أي من حيثية تعلق علمه بك (أَوْ هُوَ) أي وجوده (غَيْرُ هُوَ) أي غير وجوده.

(فَإذا حَصَلَ لَكَ العِرْفانُ) أن الوجود وجوده وترقّيت عن معرفة النفس التي هي الحالة الوسطى في معرفة الله تعالى (عَلِمْتَ أنَّكَ عَرَفْتَ الله تعالَى بِاللهِ تعالَى لا بِنَفْسِكَ) أي لا بمعرفة نفسك، فإنه هو الذي عرّفك بنفسك وعرّفك به وعرّفك أنك عرفته به لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصّافات: الآية 96].

ثم ضرب لتلك المعرفة مثالاً فقال: (مِثالُ ذَلِكَ أنَّكَ لا تَعْرِف بأنَّ اسْمَكَ مَحْمُودٌ أوْ مُسَمَّاكَ) أي ذاتك (مَحْمُودٌ فَإنَّ الاسْمِ والمُسَمَّى في الحَقِيقَةِ واحِدٌ) وقد تقدم أيضاً ذلك (وتَظُنُّ أنَّ اسْمَكَ مُحَمَّدٌ وبَعْدَ حَسْبَانِكَ) بفتح الحاء المهملة أي ظنّك الذي كنت تظنّه (عَرَفْتَ أنَّكَ) أي اسمك (مَحْمُودٌ) أي كنت تظن أن لك اسماً غير اسمك الحقيقي العدم، وتظن أن لك اسم الوجود باطل.

(فَوُجُودُكِ بالقَرارِ) بفتح القاف أي بالاستقرار على أن اسمك محمود هو الصحيح، أي عرفت أن اسمك العدم المحض (وتَحَقَّقَ) عندك الوجود (أنَّ دَعْوَاكَ باطِلَةٌ، واسْمُ مُحَمَّدٍ ارْتَفَعَ عَنْكَ بِمَعْرِفَتِكَ نَفْسَكَ مَحْمُوداً) أي ارتفع جهلك باسمك فقط وجسمك باقٍ على حاله (وَلَمْ يَكُنْ) أي اسمك (مُحَمَّداً) وحصلت لك هذه المعرفة (لا بِالفَنَاءِ عَنْ نَفْسِكَ) لأن الفاني لا وجود له فلا معرفة له (ولأنَّ الفَنَاءَ يَكُونُ بَعْدَ إثْباتِ وُجُودٍ مَا ومَنْ أثْبَتَ وُجُوداً لِمَا سِوَاهُ) عزّ

شأنه وجلّ علاه (فَقَدْ أشْرَكَ بِهِ سُبْحانَهُ وتَعَالى عُلُوّاً كَبِيراً) أي جعل له شريكاً في الوجود.

ثم بعد أن حقق الشيخ قدّس سرّه أن ما سوى الله تعالى عدم محض، أخذ يحقق أن هذه المعرفة ما حصلت من شيء خارج عن النفس بل بمعرفة نفسه بنفسهِ، ونفسُه ومعرفته فعل من أفعال ربّه تعالى فقال:

(فمَا نَقَصَ مِنْ) اسمك (مَحْمُودٍ وَلا مُحَمَّدٍ) الذي ظننت أنه اسمُك فني في اسمك (مَحْمُودٍ ولا دَخَلَ) اسم محمّد (فِيهِ وَلا خَرَجَ عَنْهُ) أي تجاوزه (وَلا دَخَلَ مَحْمُودٌ) أي ما دخل هذا الاسم في الاسم ولا المسمّى (فَبَعْدَما عَرَفَ مَحْمُودٌ نَفْسَهُ أنَّهُ مَحْمُودٌ لا مُحَمَّدَ عَرَفَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ لا بِمُحَمَّدٍ) أي الذي ظنّه أنه اسمه، فإنه لا دخل له في تلك المعرفة.

(فإنْ مُحَمَّداً مَا كَانَ فَكَيْفَ يُعْرَفُ بِهِ) أي بمحمّد (شَيْءٌ كَائِنٌ) أي موجود، وفي هذا دليل على أن الموجود وجوداً حقيقياً هو الله تعالى وغيره معدوم، فالفاعل هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96].

فإذاً التنوين في قوله قدّس سرّه: إذاً، عوض عن جملة محذوفة تقديرها فإذا عرفت (ما تُقرِّرَ) من أوّل هذه الرسالة إلى هنا من أن وحدة الوجود كائنة للملك المعبود (فالعارِفُ والمَعْرُوفُ وْاحِدٌ) بالانفراد (والواصِلُ والمَوْصُولُ وْاحِدٌ) بلا تعدُّد، والرائي والمرئي واحد لدى الأفراد، ولذا قال قائلهم:

هو أوّل هو آخرُ هو ظاهرٌ	هو باطنٌ هوَ واحِدٌ ديّان
والكائِناتُ جميعُها معدومةٌ	في نورِهِ ولها بِهِ إنْطانُ
وهُوَ الوُجودُ الحقّ جلّ جلالُه	والإنْسُ قد قاموا به والجانُّ
في المُلْك والمَلَكُوت عزّ وجلّ عنْ	معنى الشريكِ وما هي أوْثانُ

فلذا قال الشيخ قدّس سرّه: (فالعارِفُ صِفَتُهُ) أي صفة الله تعالى لأن العارف فُنِيَتْ صفاته في صفات الله تعالى، فإذا صدر منه شيء لا يرى فعله لنفسه بل لربّه تعالى (والمَعْرُوفُ ذاتُه والوَاصِلُ صِفَتُهُ، والمَوْصُولُ ذاتُهُ، والصِّفَةُ

والمَوْصُوفُ واحِدٌ) فلا ذات إلا ذاته تعالى، ولا صفات إلا صفاته تعالى، ولا أسماء إلا أسماؤه تعالى، ولا أفعال إلا أفعاله تعالى، ولا أحكام إلا أحكامه تعالى.

(هٰذا بَيَانُ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) فمن فهم هذا المقال علم أنه لا وصل له لأن الوصل لا بدَّ أن يكون بين الاثنين، وقد ثبتت الوحدانية فانتفت الاثنينية.

(ولا فَصْلَ) أي ولا انفصال لأن الانفصال لا يكون إلا بعد الوصل، وقد انتفى الوصل فانتفى الفصل.

(وَعُلِمَ) أي من هذا التقرير (أَنَّ العارِفَ هُوَ) أي باعتبار أن معرفة العبد فعل الله تعالى، فالعبد وفعله من أفعال ربّه تعالى، فجاز إطلاق العارف عليه تعالى في الحقيقة. وأما في الظاهر فلا يجوز إطلاقه عليه تعالى لأن المعرفة تستدعي سبق الجهل، وأسماؤه تعالى توقيفية فلا تثبت إلا بنصّ أو إجماع، وأثبتها قوم بالاشتقاق من الأفعال والصفات. وما جاء من الصِيَغِ في الدعوات وغيرها وهو مرجوح عند علماء الظاهر، وملحوظ عند علماء الباطن، وعليه جرى الشيخ أبو العباس البوني قدّس سرّه في تقسيمها وانتهى بها إلى مائة ونيف وخمسين، وذلك بحسب ما وصل إليه.

وذكر بعضهم أنها أربعة آلاف، فالصحيح أنه لا يعلم عدد أسمائه وصفاته تعالى إلا هو.

(والمَعْرُوفُ هُوَ، والرَّائِي هُوَ، والمَرْئِيُّ هُوَ) قال في «الحكم»: من عرف الحق تعالى شهده في كل شيء، ومن فنى به غاب عن كل شيء، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيء.

(والوَاصِلُ هُوَ المَوْصُولُ، هُوَ ما وَصَلَ إِلَيْهِ) تعالى (غَيْرُهُ، وما انْفَصَلَ عَنْهُ) تعالى (غَيْرُهُ، فَمَنْ فَهِمَ ذٰلِكَ) أي بالذوق والوجدان لا بلقلقة اللسان (خَلَصَ مِنْ شَرْكٍ) بفتح الشين المعجمة والراء المهملة حبائل الصائد والواحدة

شركة أي سلم (مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ الشِّرْكُ) الخفي (وإِلَّا فَلَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الخَلاصِ عَنِ الشِّرْكِ) فالشرك ينقسم إلى قسمين: قسم جلي، وقسم خفي. ومثال ذلك أن من شهد نفعه أو ضرره من المخلوقين ولم يشهدهما من ربّ العالمين إن اعتقد هذا اعتقاداً جازماً فشركه جليّ، وإن أسند إليهم الأفعال لا على سبيل الاعتقاد فشركه خفي، والسلامة في ذلك أنه إذا أسند إليهم الأفعال أن يسندها مجازاً.

(وأكْثَرَ العُرّاف) أي المدّعين للمعرفة (الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُم عَرَفُوا أَنْفُسَهُمْ وعَرَفُوا رَبَّهُمْ) وظنُّوا (أَنَّهُم خَلَصُوا مِنْ عِلَّةِ الوُجُودِ) العلّة عبارة عن بقاء حظ العبد في عمل أو حال أو مقام أو بقاء رسم له وصفة (قالُوا: إنَّ الطَرِيقَ لا يَتَيَسَّرَ إلا بِالفَنَاءِ، وَبِفَنَاءِ الفَنَاءِ، وذٰلِكَ لِعَدَمِ فَهمِهِمْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ) أي قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

وأما الفناء لا يفيد كونه لمعرفة الله تعالى، فكثير في كلام العارفين وتكلم عليه كل واحد منهم بحسب حاله ومقامه، فقال بعضهم في مقام الفناء والبقاء:

ومن أيّ حالٍ نِلْتَ منزلةَ الفناءِ ... فمن ضِدّها نِلْتَ البقاءَ متحقّقا

فإنْ كُنتَ في أفعالِ ذاتِكَ فانياً ... لَقَيْتَ بإخلاصٍ لِمَولاكَ ذائِقا

فإنْ صُرْتَ عن شهواتِ نفسك فانياً ... بَقَيْتَ بأوصافِ الفُتُوَّةِ موثقا

فإنْ حُرْتَ عن أحوالِ نفسكَ فانياً ... وعنها فقد ذُقْتَ الشرابَ المُرَوقا

وإنْ كُنتَ عنْ خُلقٍ وخَلْقٍ وحالة ... ونفسٍ وفعلٍ فانياً كَمُلَ البقا

وقال ابن فارض قدّس سرّه في مقام الفناء حاكياً عن ردّ المحبوب عليه وبدعواه المحبة:

فَلَمْ تهوَني ما لم تكن فيّ فانياً ... ولم تَفْنَ ما لم تجتلِ فيك صورتي

بمعنى ما دام. والاجتلاء الرؤية من قولهم: اجتليته أي رأيته جليّاً.

ومعنى البيت: أن دعواك المحبة منفية لنفي فنائك المنفي بنفي الاجتلاء، أي ما دام لم نشاهد فيك صورة أوصافي لم تكن فيّ فانياً، وما دمت لم تفنَ فيّ لم تكن محبّاً، واجتلاء وصف منك يستلزم عدم اجتلاء صورتي فيك فيلزم

نفي المحبة لوجود ملزوم ملزومه، وهي نفي الاجتلاء المستلزم لنفي الفناء المستلزم لنفي المحبة.

ثم قال الشيخ قدّس سرّه: (وَبِطَلْبِهِم) أي العرّاف (أَنَّهُم يَمْحُونَ الشِّرِكَ) أي مشاركة وجودهم مع وجود الحق تعالى (أشارُوا طَوْراً) أي تارةً بإضافة معرفة الله تعالى (إلى فَنَاءِ الوُجُودِ) وأشاروا (طَوْراً إلى فَنَاءِ الفَنَاءِ) وهو الفناء الكليّ، فلا علم ولا عمل، ولا حال ولا مقام، ولا اسم ولا رسم، ولا وصفَ ولا نعت، وكل ذلك فانٍ فيه فهو هو لا شيءَ سواه، تعالى.

وأشاروا (طَوْراً إلى المَحْوِ) أي إلى معرفة الله في محو وجود العبد نفسه، وفي اصطلاحهم المحو ينقسم إلى أقسام: منها محو أرباب الظواهر، وهو رفع أوصاف العادة والخصال الذّميمة، ويقابله الإثبات الذي هو إقامة العبادة واكتساب الأخلاق الحميدة.

(ومنها) محو أرباب السّرائر، وهو إزالة العلل والآفات، ويقابله إثبات المواصلات، وذلك برفع أوصاف العبد ورُسوم أخلاقه وأفعاله بتجليات صفات الحق تعالى وأفعاله كما قال تعالى: «كنتُ سمعَه الذي يسمع به»[1] الحديث.

ومنها المحو الحقيقي، وهو فناء الكثرة في الوحدة.

ومنها محو العبودية، ومحوُ عين العبد، وهو إسقاط إضافة الوجود إلى الأعيان، فإن الأعيان شؤون ذاتية ظهرت في الحضرة الواحدية بحكم العالميّة، فهي معلومات معدومة العين أبداً إلا أن الوجود الحق تعالى ظهر فيها فهي مع كونها ممكناتٍ معدومةً لها آثار في الوجود، والظاهر فيها وبصورها المعلومة والوجود ليست إلا عين الحق تعالى، والإضافة نسبة ليس لها وجودٌ في الخارج، والأفعال والتأثيرات ليست إلا تابعةً للوجود، إذ المعدوم لا يؤثر فلا فاعل ولا موجود إلا الحق تعالى وَحْدَهُ، فهو الفاعل لا سواه لقوله تعالى:

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (6137) [5/ 2384] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من الثقة بالله تعالى. . . ، حديث رقم (347) [2/ 58] ورواه غيرهما.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصّافات: الآية 96]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية 17].

وأشاروا (طَوْراً إلى الاصْطِلامِ) أي إلى أن معرفة الله تعالى بالاصطلام، وهو أخذ العبد عن الإحساس والآثار وعن مشاهدة الأغيار (فَلَمْ يَشْهَد إلا الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ، وهٰذِهِ الإِشَارَاتُ كُلُّها شِرْكٌ مَحْضٌ) أي خالص لا يخالطه المعرفة في شيء، لأن كل هذه الإشارات لا تخلو من دعوى الوجود (فَإِنَّ مَنْ جَوَّزَ أنْ يَكُونَ) أي يوجد (شَيْءٌ سِوَاهُ) تعالى (وَيَفْنَىٰ بَعْدَهُ) الضمير عائد إلى الوجود المفهوم من يكون التي بمعنى يوجد (وَجَوَّزَ فَنَاءَ فَنَائِهِ، فَقَدْ أَثْبَتَ شَيْئاً مَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَثْبَتَ شَيْئاً مَا سِوَاهُ فَقَدْ أَشْرَكَ) الوجود الباطل مع الوجود الحق تعالى.

(أَرْشَدَهُم الله تَعالَى وَإِيَّانَا إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ) قدّمهم بالدعاء على نفسه لشدّة شفقته، وفي ذلك دليل على كمال إرشاده وولايته لأن المرشد لا يكون مرشداً كاملاً حتى يحب للكافرين الإيمان، وللعاصين التوبة من العصيان، وللطائعين الثبات على عبادة الرحمٰن والوصول إلى مقام الإحسان.

والحاصل أن كلام العارفين القائلين بوحدة الوجود نثراً ونظماً لا يعدّ ولا يحصى، فمن ذلك قال قائلهم:

ظَنَنْتُ ظُنُوناً بأنّك وما ... أن تكونَ وَلا قَطُّ كُنْتَا
فَإنْ أَنْتَ أَنْتَ فَإِنَّكَ رَبٌّ ... وثانِي اثْنَيْنِ دَعْ ما ظَنَنْتَا
فلا فرق بين وجوديكما ... فما بانَ عنكَ ولا عنهُ بِنْتَا
فإنْ قُلْتَ جهلاً بأنّكَ غيرٌ ... خَشِيْتَ وإنْ زالَ جَهْلُكَ لِنْتَا
فوصلُكَ هَجْرٌ وهَجْرُكَ وصل ... وبُعْدُكَ قُرْبٌ بهذا حَسُنْتَا
دَعِ العَقْلَ والفَهْمَ بنورِ انْكِشَافٍ ... لِئَلا يَفُوتُكَ ما عنهُ صُنْتَا
فَلا تُشْرِكَنَّ معَ اللهِ شَيْئاً ... لِئَلا تَهُونَ فبالشركِ هِنْتَا

(فَإِن قَالَ قَائِلٌ: أنتَ تُشِيرُ إلَى أنَّ عِرْفَانَكَ نَفْسَكَ هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى،

والعَارِفُ بِنَفْسِهِ غَيْرُ اللهِ وَغَيْرُ اللهِ كَيْفَ يَعْرِفُ اللهَ؟ فَكَيْفَ يَصِلُ إِلَيْهِ؟ قُلْنَا) الجواب في قوله ﷺ: (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ)[1] فالمعرفة تتفاوت، فنهاية معرفة الله تعالى معرفة النفس أولاً، ومعرفة النفس موقوفة على عدم وجود النفس، وعدم وجود النفس موقوف على قربي النوافل والفرائض، فالأول به تزول الصفات البشرية كالقدرة الوهمية والمشيئة القهرية، والعلم والظن والسمع، والبصر والعقل، والكلام مع الغفلة، وهذه الأشياء في طبع البشر، وبها تكون الأخلاق والأفعال الذميمة، فمتى فنيت هذه الصفات ظهرت صفاته تعالى على العبد بأن يحيي ويميت بإذن الله تعالى، ويسمع ويُبصر من جميع جسده لا من الأذن والعين، وكذا يسمع المسموعات من بعيد، ويبصر المبصرات من بعيد. وعلى هذا القياس بواقي الصفات بحيث إن غير مقتضى البشرية لا يقدر على ذلك، وهذا معنى فناء الصفات البشرية في صفات ربّ البرية، وهو ثمرة النوافل.

وأما قرب الفرائض فهو فناء العبد بالكلية عن شعور وإدراكِ جميع الموجودات، حتى عن نفسه أيضاً، بحيث لم يبقَ في نظره شيء إلا وجود الحق، وهو معنى فناء العبد في الله تعالى، وهو ثمرة الفرائض. وبهذا يصح الجمع بين قول المؤلف قدّس سرّه المستَنِدِ به إلى قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» وبين قول العارفين: إن معرفة الله تعالى موقوفة على فناء الوجود، وفناء الفناء.

فالمؤلِّف قدّس سرّه نظر إلى نهاية المعرفة، وهم نظروا إلى بدايتها.

ثم أخذ الشيخ قدّس سرّه أن يبيّن معنى الجواب فقال: (عُلِمَ أنَّ وُجُودَهُ) أي وجود نفسه (لَيسَ بِوُجُودِهِ) بل الوجود الحق للواحد الحقّ (وَلا غَيرِ وُجُودِهِ) من المحدثات له وصف الوجود (بَلْ وُجُودُهُ وُجُودُ اللهِ) تعالى لقيام وجوده بوجود ربّه (بِلا دُخُولِ وُجُودِهِ) الحادث (في) وجود (اللهِ) تعالى القديم، لأن الحادث لا يخالط القديم (ولا خُرُوجِ وُجُودِهِ عَنْهُ) أي عن وجود الله تعالى

---

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

لِقيامِهِ به (وَلَا كَوْنَ) أي لا وجود له (مَعَهُ) تعالى، ولا وجود له (فِيهِ) تعالى تنزَّه الله تعالى عن أن يحلّ فيه شيء أو يحلّ هو في شيء.

(بَلْ يَرىٰ وُجُودَهُ بِحالِهِ مٰا) أي الذي (كٰانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ) أي يوجد (بِلا فَنَاءٍ وَلَا مَحْوٍ ولا فَنَاءِ فَنَاءٍ، فَإِنَّ فَنَاءَ الشَّيْءِ يَقْتَضِي ثُبُوتَهُ أوّلاً) أي قبل الحكم بفنائه (وَثُبُوتُ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ يَقْتَضِي كَيْنُونِيَّتَهُ) أي كونه موجوداً (بِنَفْسِهِ لا بِقُدْرَةِ اللهِ تعالَى، وهٰذَا) أي ثبوت الشيء بنفسه (مُحالٌ) أي مستحيل الوجود (وَاضِحُ) الدلالة (وَصَرِيحِ) البطلان.

(فَتَبَيَّنَ) أي ظهر (أَنَّ عِرْفانَهُ بِنَفْسِهِ) أي بمعرفته لها (هُوَ عِرْفانُ اللهِ تعالَى لِأَنَّ نَفْسَهُ لَيسَ إِلَّا هُوَ) أي الموجود الحق (وعَنٰى رَسُولُ الله ﷺ بالنَّفْسِ الوُجُودَ) وفي هذا المحلّ يقال: «أطفئ السراج فقد طلع الصبح» كما قال حضرة أمير المؤمنين ويعسوب الموحِدين الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ورضي الله عنه ورُفع في عالم السّفلي والعلويّ قدره لما سأله كُميل بن زياد رضي الله عنه عن الحقيقة فقال له رضي الله عنه: مٰا لَكَ والحقيقة، قال: أوَ لَسْتُ صاحبَ سِرّك، قال علي كرَّم الله وجهه: بلى ولكن يطفح عليك ما يرشح مني، فقال: أو مثلُكَ يُخيّبُ سائلاً، فقال: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة، فقال: زدني بياناً، فقال: محو الموهوم مع صحو المعلوم، فقال: زدني بياناً، فقال: هتك الستر لغلبة السرّ، فقال: زدني بياناً، قال: جذبُ الأَحَدِيَّةِ بصفة التوحيد، فقال: زدني بياناً، فقال: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره، فقال: زدني بياناً، فقال: اطْفِ السّراجَ فقد طَلَعَ الصبحُ، أي دَعِ البيانَ العلمي واترُك الحدَّ العقلي واطفِ نورَ العقل الذي هو بالنسبة إلى نور الحق تعالى كالسّراج بالنسبة إلى الشمس، فقد طلع عليك تباشير الحق تعالى وأوائلُه التي هي بالنسبة إليك كنسبة نور الصباح إلى نور الشمس وقت الاستواء، وعند الانبلاج لا يحتاج إلى السراج.

وهذا معنى قول الشيخ قدّس سرّه: (وَمَنْ وَصَلَ إِلَى هٰذَا المَقَامَ لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ فِي الظّٰاهِرِ والبٰاطِنِ بِلا فَناء) في (وُجُودِ اللهِ تعالى) فإذا فنيت صلاته

بتجلّي الحق تعالى الخاص (خَضَعَ) أي اضمحل وفني لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية 143] لأن الحادث لا يقوى على تجلّي القديم، ثمّ يُبْقِيهِ بإمداده فيبدو له عجزه من حيث نفسه فيقول كما قال الصدّيق الأكبر رضي الله عنه: «العجز عن دركِ الإدراكِ إدراك» فالحق تعالى لا يُدرك لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية 103] ولا يُرى في الدنيا لقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: الآية 143].

(بَلْ) يكون (وُجُودُهُ وُجُودَ اللهِ) تعالى لقيامه به (وكَلَامُهُ كَلَامَ اللهِ) تعالى (وفِعْلُهُ فِعْلَ اللهِ) تعالى، وذلك بالوراثة المحمدية بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: الآية 3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية 17].

(ودَعْوَاهُ مَعْرِفَةُ نَفْسِهِ مَعْرِفَةُ اللهِ تعالَى، ولْكِنَّكَ تَسْمَعُ الدَّعْوى مِنْهُ وتَرَى الفِعْلَ مِنْهُ) كقول بعضهم: سبحاني ما أعظم شاني، وقول بعضهم: أنا الحق. وكإحياء الموتى منها ما وقع لسيدي السيد أحمد البدوي قدّس سرّه فإنه كان له مريداً وصى عند موته أنه لا يؤمُّ بجنازته إلا شيخه السيد، فلما وضعوا الجنازة وتقدم السيد ليؤمّ عارضَهُ إمام المسجد بأنه أحق بالإمامة منه، فقال السيد قدّس سرّه: لا أنا ولا أنت، قُمْ أيها الميت، فقام ذلك الميت بإذن الله تعالى. فالمتكلم في الحقيقة هو الله تعالى، والمحيي هو الله تعالى، والذي ظهر منه الكلام، وصدر منه الفعل، وهو كالآلة، ولهذا قال قائلهم:

ظَهَرَ وجودُ الحقّ في مرآتنا	إذ نحن في العدم المقدّرِ لم نَزَلْ
فوجودنا هو صورة لوجوده	لا أنّهُ ذاك الوجودُ علا وجَلّ
وكذا ظَهَرْنا نحن في مرآته	مع أنّنا عدمٌ ومنه عَلا وجَلّ
وهُوَ المُقَدِّرُ بالصفات ذواتنا	وصفاتنا من غير بدَاءٍ في الأزل
إذ نحنُ أجْمَعْنا على العدم الذي	ما شَمَّ رائحة الوجود إذا نَزَل
فظهوره فينا بقول قل انظروا	ماذا الذي في السماء والأرض هَلْ
وكذاك وهو الله قال بأنه	هو في السماء والأرض مَنْ يَجْحَدْهُ ذَلّ

وظهوره فينا بحكم كلامِه	في كلّ شيء هالك إلا الأجلُّ
مع أننا نحن العوالم كلها	موجودة فافهم وفصّل ما انْجَمَل
واحْذَرْ تظُنُّ تَغيراً وتَبَدُّلاً	في ربنا عما عليه قد انتقل
وكذلك احْذَرْ أنْ تَظُنَّ بأنّنا	عمّا عليه لنا التغيّر والبَدَل
فإذا رآنا فهو رائي نفسَه	لا أننا هو وبِنَا حاشاه حلَّ
وإذا رأيناه فأنفسَنا نرى	لا غيرُ فاكْشِفْ عن سَنا هذا المحلّ
هذا هو العرفان وهو أجَلُّ ما	يأتي به بشرٌ وحقَّقه الأمل
إرثُ النَّبِيِّ محمَّدٍ وهو الذي	جاءتْ به سادتُنا القومُ الأوَل

ثم قال الشيخ قدّس سرّه: (وتَرَى وُجُودَ شَخْصٍ غيرَ اللهِ تعالى كَمْا تَرَى نَفْسَكَ) أي ترى أنَّ لك وجوداً غير الله (لِجَهْلِكَ بِمَعْرِفَةِ نَفْسِكَ غَيرَ اللهِ) تعالى، قد تقدم بيان معرفة النفس تفصيلاً، ومعرفتها إجمالاً بأن تعرف أنها وفعلها فعل من أفعال الله تعالى، فوجودها كوجود الصورة المرتسمة في المرآة فإنه إذا قابلها الوجود الحق تعالى ظهرت لها صورة، ولهذا قال الشيخ قدّس سرّه:

(فَإِنَّ المُؤمِنَ) أي الوجود الحق (مِرْآةُ المُؤمِنِ) بالله تعالى، إذا وصل إلى مقام الإيمان والإحسان يرى ذلك بالذوق والوجدان (فَهُوَ بِعَيْنِهِ) أي بنظره (فَإِنَّ عَيْنَهُ) أي عين المؤمن الكامل (عَيْنُ اللهِ) تعالى أي (نَظَرُهُ نَظَرُ الله) تعالى، فإنه لما وصل إلى رتبة الكمال صعد بهمّة أنانية وقدرة ربّه التي قام بها فغاب عن شهود صورته الظاهرة والباطنة وأضيفت أفعاله كلها إلى الله تعالى كما تقدم بيانه، وذلك بوصوله إلى مقام المحبوبية فيكون الله تعالى سمعه وبصره ولسانه ويده (بِلا كَيْفِيَّةٍ) وحالة من الأحوال.

(لا هُوَ) أي نظره (هُوَ) الحالُ (بِعَيْنِكَ أو عِلْمِكَ أوْ فَهْمِكَ أوْ وَهْمِكَ أوْ ظَنِّكَ أوْ رُؤْيَتِكَ) تنزّه الله تعالى عن الحلول في شيء (بَلْ هُوَ) الله تعالى هو الناظر (بِعَيْنِهِ وعِلْمِهِ وَرُؤْيَتِهِ، فَإنْ قَالَ) العبد الفاني في الله تعالى (أَنَا اللهُ فَاسْمَعْ مِنْهُ) أي من الله (لا مِنَ الغَيْرِ، فَإِنَّ الله تعالى يَقُولُ: أَنَا اللهُ لا هُوَ) أي لا يقولُ العبدُ ذلك (ولٰكِنَّكَ ما وَصَلْتَ إِلَى ما وَصَلَ) هذا العبد (إِلَيْهِ) حتى تفهم

الخطاب (فَإِنْ وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهِمْتَ ما يَقُولُ) وعلمتَ أنَّ القائل هو الله تعالى.

(وقُلْتَ ما يقول، ورَأَيْتَ ما يَرَى) وقبل وصولك إلى هذا المقام تنكر عليه والبعض يكفّره والبعض يكذّبه كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: الآية 39].

(وعلَى الجُملةِ وُجُودُ الأشياء وجُودُهُ) تعالى لقيامها به (بِلا وُجُودِها) أي الأشياء، فإن الله تعالى كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، فلا تقعن في شبهة الحلول (وَلَا تَتَوَهَّمَنْ بِهٰذِهِ الإشاراتِ أنَّ الله تعالَى مَخْلُوقٌ، فإنَّ العارِفِينَ قالُوا: الصُّوفِيُّ غير مَخْلُوقٍ، وذٰلِكَ بَعْدَ الكَشْفِ التَّامِ وزَوَالِ الشُّكوكِ والأَوْهامِ) لعلمه بتعلُّق علم الله تعالى بإيجاده في الأزل فصار من جملة علم الله تعالى، وعلم الله تعالى غير مخلوق، فالصوفي غير مخلوق بهذا الاعتبار، وإن كان مخلوقاً من حيثية الروح والجسم.

(وهٰذِهِ اللُّمْعةُ) أي القطعة من الفهم الكشفي، وهي قوله: الصوفي غير مخلوق يحصل فهمها (لمن له خلْقٌ) بسكون اللام وضمّها السَجِيَّة (أَوْ سَمْعٌ) بفتح السين وسكون الميم أخذاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: الآية 37] فإن الصوفي يسمع التسبيح والتقديس لله تعالى (مِنَ الكَوْنَيْنِ) أي من عالم المُلك وعالم الملكوت. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية 44] ولكن لا يفقه هذا التسبيح إلا من كان الحق تعالى سمعه وبصره ولسانه ويده.

(وأمّا مَنْ كانَ خَلْقُهُ) من جهة الجمود كالكونين (فلا تُوافِقُهُ) هذه اللمعة (فإنّها أعْظَمُ) على فهمه السقيم من الكونين. وعلى الجملة (فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّائِي) بصيغة اسم الفاعل (والمَرْئِيّ) بصيغة اسم المفعول وكذا ما بعده إلى قوله: والمدرك (والمُوَحِّدُ والمُوَحَّدُ والعَارِفُ والمَعْرُوفُ، والمُوجِدُ والمُوْجَدُ، والمُدْرِكُ والمُدرَكُ، وَاحِدٌ) وهو الله تعالى. ولهذا قال قائلهم:

مــا لــه عــنــدك كــنــهُ فــتــحــقــقــهُ وكــنْ هُــو

إنَّهُ الغائِب فيه لِمَنْ تَعَرَّضُ عنه | أنتَ غَيْب وهو غيب لك تأتي أنتَ منهُ
وتيقظ أيُّها الغا | فِلُ أنتَ لَدُنْهُ
للربوبية سِرٌّ | فاحفظ السرَّ وصُنْهُ
وعليكَ العهد مأخوذ | من الرّبِّ اعْرِفنهُ
وعزيزٌ هوَ في ذا | تِكَ إيّاكَ تُهِنْهُ
عَدَمٌ أنتَ ومولا | كَ وجودٌ فاشْهَدَنْهُ
زينةُ الله فَخُذْها | منه واخرج لا تُشِنْهُ
وعلى نفسك مَنْ يَنْ | صَحُ بالحقِّ أعِنْهُ
وإذا أمَّنَكَ المُو | دِعُ سِرّاً لا تَخُنْهُ
وَارْجِعِ الأمر إلَيهِ | ذَاتَكَ امْحَقْها لَدُنْهُ
شَرْعُكَ الميزانُ فاعْمَلْ | والذي تَعْمَلُهُ زِنْهُ

أي بميزان الشريعة واترك ميزان العقل. قال الشعراني قدّس سرّه: ما أعطى الله تعالى صاحب العقل الميزان إلا ليزن بها لله لا على الله تعالى، والناس في ترك ميزان عقلهم على طبقات، فمنهم من دخل حضرة الله تعالى بميزانه فوزن على الله تعالى فهو يردّ على الله تعالى كل ما أضافه لنفسه ممّا لم يقبله عقله، فهذا مع الهالكين.

ومنهم من وضع ميزانه على باب الحضرة ودخل بلا ميزان، فهذا لا يؤمن عليه إذا خرج أن يزن فيهلك، كذلك لكنه أكثر أدباً ممن دخل الحضرة بالميزان.

ومنهم من سبك ميزانه وأذابها حتى خرجت عن كونها ميزاناً، فهذا يرجى له الفتح.

ثم فصّل الشيخ قدّس سرّه ما أجمله فقال: (هُوَ يَرَىٰ وُجُودَهُ بِوُجُودِهِ، وَيَعْرِفُ وُجُودَهُ بِوُجُودِهِ، وَيُدْرِكُ وُجُودَهُ بِوُجُودِهِ بِلا كَيْفِيَّةِ إدْرَاكٍ وبِلا كَيْفِيَّةِ رُؤْيَةٍ، وبِلا كَيْفِيَّةِ مَعْرِفَةٍ) فَإِنَّ الكيفية والماهية من صفة الحوادث، والحق تعالى منزّه عن صفة الحوادث مطلقاً (بِلا وُجُودِ حُرُوفِ صُورَةِ الإِدْرَاكِ، وبِلا وُجُودِ

حروف الرؤية، وبِلا وجودِ حروفِ المَعْرِفَةِ، وَكَما إنَّ وُجُودَهُ بِلا كَيْفِيَّةٍ فَرُؤْيَةُ نَفْسِهِ بِلا كَيْفِيَّةٍ، وإدْرَاكِهِ نَفْسَهُ بِلا كَيْفِيَّةٍ) وكذلك جميع صفاته الكمالية التي لا تتناهى بلا كيفيَّة، ومحبته وجماله جلَّ جلاله بلا كيفيَّة.

وقد ورد: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال»[1]، فالجمال لله تعالى صفة أزليَّة قائمة بذاته العلية، مشاهدة أولاً مشاهدة علمية، فأراد أن يراه في صنعه مشاهدة عينيَّة، فخلق العالم كمرآة شاهد فيه عين جماله تعالى عيناً، فالجميل الحقيقي هو الله تعالى وكل جميل في الكون مظهر جماله، فلذا قال قائلهم:

وكُلُّ مَلِيحٍ حُسْنُهُ من جمالِها مُعارٌ لَهُ بَلْ حُسْنُ كُلِّ مَلِيحةٍ

(وإنْ سَاءَلَ سائِلٌ وقالَ: بِأيِّ نَظَرٍ نَنْظُرُ إلَى جَمِيعِ المَكْرُوهاتِ والمَحْبُوبَاتِ، فَإذا رَأيْنا رَوْثاً أوْ جِيفَةً فَنَقُولُ: هُوَ اللهُ تَعالَى) الجواب: إن المحبَّ المشغوف يرى أفعال محبوبه كلها محبوبة ولا يرى شيئاً من آثار محبوبه إلا محبوباً، وجمال الذات المطلق موجود في كل صفة من الصفات الجمالية والجلالية. فلو كان السائل محبّاً لما سألَ هذا السّؤال لأنه كان يرى كما رأت الأحباب فهو لجمود قريحته وعمى عينِ بصيرتهِ لو أثبته بألف جواب لم تفده فائدة ما لِتَرَاكُم ظلماته مع العمى، فلو وصفنا العسل لمن لم يذقه ألف مرة لمن لم يصل إليها هل يحصل له مثل مَن وصل إليها واستنارت بصيرته.

وقال المؤلف قدّس سرّه مجيباً: (قُلْنا اللهُ تعالى وتقدَّسَ أنْ يَكُونَ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ الأشياءِ، وكَلامُنا مَعَ مَنْ لا يَرى الجِيفَةَ جِيفَةً لأنَّها فِعْلُ محبوبه ولا يَرَى الرَّوْثَ رَوْثاً لأنَّ الأشْياءَ كُلَّها آياتُ اللهِ تعالَى) ودلائل قدرته، بل كلامنا مع مَن له بصيرة وليس بأكمه أي بمطموس البصر خلقة (فَإنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ فَهُوَ أكْمَهُ وَأعْمَى) عن الوصول إلى مقام العرفان.

(وقِيلَ: ذَهابُ الأكْمَهِيَّةِ والعَمَى لا يَصِلُ إلَى هٰذِهِ المَعانِي) الدّقيقة (وهٰذِهِ

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكبر. . . ، حديث رقم (91) [1/ 93] ورواه ابن حبان في الصحيح، ذكر ما يستحب للمرء تحسين ثيابه. . . ، حديث رقم (5466) [12/ 280] ورواه غيرهما.

المُخاطَباتِ الجليّةَ مَعَ اللهِ) تعالى، فإنَّ العارف يخاطبه في قلبه، ويحصل الجواب له بما يُلْقيهِ عليه فيزداد به تثبيتاً وتمكيناً، فيكون قلبُه كجبل طور سيناء وقد عبّر عنه بعضهم بالإلهام، وقال بعضهم: وقد يخصّ الله تعالى بعض عباده بنور إلٰهي فرق به بين ما يرد على قلبه من واردات الحق تعالى وبين ما يرد على قلبه من غير ذلك، ويعلم يقيناً ما يرد على قلبه من الله تعالى، بحيث لا يزول بتشكيك مشكّك أبداً، ويعبّر عن هذا الكلام بالحديث، كما أشار إليه خبر: «إن يكُنْ من أمتي محدّثون فَعُمَرُ»[1] أي يكون في أمتي من يحدّثه الحق تعالى ويعلم به أنه الحق فَعُمَرُ منهم.

وقد اشتهر في هذه الأمة من المحدّثين مع الله تعالى كثير، منهم المؤلف قدّس سرّه، وأبو يزيد البسطامي، وسَرِيّ السَّقَطي، وعُمرَ بن الفارض قدّس الله أسرارهم. وفي كل عصر هكذا إلى أن لا يبقى مؤمن على وجه الأرض.

فهؤلاء حديثهم مع الله تعالى حقيقة (لَا مَعَ غَيْرِ اللهِ تعالَى وَلَا مَعَ الأكْمَهِ، فَإنَّ الواصِلَ إلَى هذَا المقامِ يَعْلَمُ أنَّهُ لَيْسَ غَيْرَ اللهِ شَيْءٌ، وخِطابُنا مَعَ مَنْ لَهُ عَزم وهِمَّة في طَلَبِ العِرفَانِ نَفْسَهُ) أي ذاته أي حقيقته الداخلة تحت قوله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[2].

فيصل (بِمَعْرِفَةِ اللهِ) تعالى (وَيَنْظرُ) أي يطلع (في قَلْبِهِ) العرفان (وَيَطْوى) ليتعمد في (قَلْبِهِ صُورَةٌ في الطَّلَبِ والاشْتِياقِ فَتَحْصَل لَهُ سَوْرَةٌ) أي وثوب (في الطَّلَبِ والاشْتِيَاقِ إلَى اللهِ) تعالى (لا كَلامُنَا مَعَ مَنْ لا قَصْدَ وَلا مَقْصَدَ لَهُ) أي لا طلب ولا مطلب له، بل كلامنا مع من له طلب ومطلب فطلبه من نفسه لخبر: «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه»[3]، ومطلبه معرفة الله تعالى المتوقّفة على معرفة النفس، فإذا أراد الله تعالى بعبده خيراً جعل له سائقاً من

---

(1) رواه بنحوه البخاري في صحيحه، باب مناقب عمر بن الخطاب. . ، حديث رقم (3485) [3/ 1349] ورواه مسلم في صحيحه، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم (2398) [4/ 1864] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء، من طريق الحارث بن أسد المحاسبي [10/ 99].

نفسه يسوقه إلى حضرة قدسه، ولذا قال قائلهم[1]:

فكلّي لكلّي طالبٌ متوجِّهٌ ... وبعضي لبعضي جاذِبٌ بالأعِنَّة

قوله: فكلّي لكلّي لفظ كل يطلق على معنيين: على كل فرد فرد من أجزائه وأبعاضه قلباً وروحاً وسرّاً وخفيّاً وأخفى، ونفساً وقالباً. ويطلق الكل أيضاً على مجموع ذاته أي فَسَيرَهُ بأجزائه لقطع العَقَبات في مقامات الطريق بالقلب والرُّوح والسّرّ والخفي والأخفى والنفس والجسم إلى كلّه أي طالباً لمقام الجمع ومتوجّهاً نحوه.

وقوله: بعضي لبعضي، أي كل جزء ولطيفة من هذه الأجزاء واللطائف جاذب للآخر بالجواذب الروحانية، فأول جزء يرد من العبد مشرع الجمع قلبه ثم روحه، ثم سرّه، ثم خفاه، ثم أخفاه، ثم نفسه، ثم جسمه إلى أن يتمّم مقام الجمع له. وفي هذا المحل كلام لو بسطناه لخرج هذا الشرح عن اختصار المرام.

(فإنْ سَائِل سَأل وقال: قالَ الله تعالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: الآية 103] وأنت تَقُولُ بِخِلافِهِ، فما حَقِيقَةُ ما تَقُولُ؟ فالجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ جَمِيعُ ما قُلْنَا) في الوحدة الوجود (هُوَ مَعْنَى قولِهِ تعالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: الآية 103]) أي بعين الباصرة بل تدركه القلوب بعين البصيرة والمعرفة.

قال علي كرّم الله وجهه: لم أعبد ربّاً لم أره. فقال له إنسان: كيف رأيته؟ فقال له: وَيَحْكَ ما وَعْيُكَ؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان.

أي (لَيْسَ أَحَدٌ يُدْرِكُهُ ولا شَيْءٌ مَعَ أَحَدٍ يُدْرِكُهُ) مطلقاً بالمعاني البديهيّة والنظرية والأزمنة، والقوى المعبّر عنها بالحواس المسمّاة في كل موضع من

(1) القائل هو الشيخ عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة، الملقب شرف الدين ابن الفارض، المولود سنة 576 هجرية والمتوفى سنة 632 هجرية [الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي].

البدن باسم خاص، بسبب إدراك خاص، فالمقادير تدرك بالبصر والأصوات تدرك بالسمع، والروائح تدرك بالشمّ، والطعوم تدرك بالذوق، والكيفيّات كالصلابة والرخاوة والحرارة والبرودة ونحوها تدرك باللّمس، وكل ذلك مستحيل أن يدرك الحق تعالى به.

(فَلَوْ جازَ أنْ يَكُونَ في الوُجُودِ غَيْرُهُ لَجازَ أنْ يُدْرِكَهُ غَيْرُهُ، وقَدْ نَبَّهَ اللهُ تعالى بِقَوْلِهِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: الآية 103] على نفي الغير كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: الآية 19] فإذا انتفى الغير من الألوهيّة والإدراك فيعلم (أنْ لَيْسَ غَيْرُهُ سِواهُ، يَعْنِي لا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ بَلْ يُدْرِكُهُ هوِيَّتُهُ) أي هو يدرك نفسه بنفسه (بِلا غَيْرٍ، فَهُوَ المُدْرِكُ لِذاتِهِ بِذاتِهِ لا غَيْرَ) أي لا يدرك (ذاتهُ سِواهُ، فَلا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ لأنّها مُحْدَثَةٌ، والمحْدَثُ لا يُدْرِكُ القَدِيمَ الباقِي) ومَن لم يصل إلى هذا المقام (فَهُوَ بَعِيدٌ لَمْ يَعْرِف نَفْسَهُ) فلم يعرف ربّه (إذْ لا شَيْءَ وَلَا ابْصَار إلّا هُوَ) مقلّب القلوب والأبصار (فَهُوَ يُدْرِكُ وُجُودَهُ بِلا وُجُودِ الإدْراكِ والكَيْفِيَّةِ) لعدم احتياجه مطلقاً ولغناه مطلقاً فلا تقييد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية 15].

والحاصل أن المعرفة بالله تعالى لا تكون إلا بالله، فلذا قال قائلهم:

عـــرفـــت الـــربّ بـــالـــربّ	بـــلا شـــكّ ولا ريـــب
فـــذاتـــي ذاتـــه حـــقّـــاً	بـــلا نـــقـــص ولا عـــيـــب
ولا غـــيـــران بـــيـــنـــهـــمـــا	فـــنـــفـــســـي مـــظـــهـــر الـــغـــيـــب

(فَإنْ سَألَ سَائِلٌ وقَالَ: أنْتَ تُثْبِتُ اللهَ تعالى وتَنْفِي كُلَّ شَيْءٍ، فَمَا هٰذِهِ الأشْيَاءُ التي نَراها؟) أي كالأرض وما فيها، والسماء والشمس والقمر والنجوم ونحوها من العالم العلوي والسفلي (فَالجَوَابُ: قُلْتُ هٰذِهِ المقالاتِ) أي في وحدة الوجود متكلّماً بها (مَعَ مَنْ لا يَرىٰ سِوَى اللهِ) تعالى (شَيْئاً) لاضمحلال ما سواه ووجوده وعدمِهِ وفنائه (ومَنْ يَرىٰ شَيْئاً سِوَى اللهِ) تعالى (فَلَيْسَ لَنَا مَعَهُ جَوَابٌ وَلَا سُؤالٌ) لعدم وصوله إلى هذا المقام (فَإنَّهُ لا يَرىٰ غَيْرَ مَا يَرَىٰ) فإنه غريق في ظلمة السّوى (ومَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لا يَرَىٰ غَيْرَ اللهِ) تعالى في الوجود

(وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ لا يَرَى اللهَ) تعالى، فإن معرفة الله تعالى مشروطة بمعرفة النفس (وكُلُّ إِنَاءٍ يَتَرَشَّحُ بِمَا فِيهِ) فإناء العسل لا يترشّح إلا العسل، وإناء الصبر لا يرشَح إلا الصبر. وقلت:

أرى الشوق في قلبي يزيد ويطفح	ونيران وجدي والصبابة تجرح
وكنت بكتمان الهوى مُولَعاً به	فمالي ودمعي صار يبدي ويشرح
فقلتُ له يا دَمْعُ دَعْ جَرْيكَ الذي	به تكشِفُ الأستار عنّي وتفضح
فقال: ألم تسمع لأقوال من مضىٰ	وكُلُّ إناءٍ بالَّذي فيه يرشح

(وَقَدْ شَرَحْنَا كَثِيراً مِنْ قَبْلُ) أي في هذه الرسالة (وإنْ شُرِحَ) بالبناء للمجهول، ونائب الفاعل قوله: (أَكْثَرُ مِنْ ذٰلِكَ) أي من المذكور (فَمَنْ لا يَرىٰ لا يَرىٰ وَلَا يَفْهَمُ ولا يُدْرِكُ) فالنبيه يدرك بالمثال الواحد ما لا يدركه الغبيّ بألف شاهد (ومَنْ يَرَىٰ يَرىٰ ويَفْهَمُ ويُدْرِكُ) بما أودعه الله تعالى في قلبه من المعارف الإلٰهيّة والمواهب الصمدانيّة.

(والوَاصِلُ تَكْفِيهِ الإشارَةُ، وغَيْرُ الوَاصِلُ) لا يفهم بصريح العبارة (ولا يَصِلُ) الإدراك إلى فهمه السقيم، ولا يصل إلى الله الكريم (لا بالتَّعْلِيمِ ولا بالتَّفْهِيمِ، ولا بالتَّقْرِيبُ) إلى فهمه (ولا بالتَّقْرِيرِ باللِّسانِ، ولا بالعِلْمِ) أي بتوضيح أدلته (ولا بِالعَقْلِ) لعدم وجودِهِ (إلّا بِخِدْمَةِ شَيْخٍ وَاصِلٍ) إلى الله تعالى (وأُسْتَاذٍ حَاذِقٍ) أي ماهر بتأديب النفوس وسياستها (سَالِكٍ) للطريق، قاطع لعقبات النفس على التحقيق (يَهْتَدِي) هذا الجاهل (بِنُورِهِ) الباطني (ويَسْلُكُ) الطريقة المرضية (بِهِمَّتِهِ) القويّة الجاذبة له إلى ربّ البريّة (وَيَصِلُ بِهِ إِلَى مَقْصُودِهِ) وهو مقام الإحسان (إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ).

(وَفَّقَنَا اللهُ) تعالى وأحبابنا وإخواننا وجميع المسلمين (لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ بِالقَوْلِ) كالمسائل العلميّة (والفِعْلِ) كالعبادات البدنية والمالية (والعِلْمِ) بما ينفعنا (والنُّورِ) الموضّح لنا طريق الصّواب (والهُدىٰ) باتّباع رسوله ﷺ لبّ الألباب (إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَبِالإجَابَةِ جَدِيرٌ) أي حقيق من غير تأخير.

(وصلّى اللهُ تعالى علىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ) وصحبه (أجمعين).

وقد وقع الفراغ من تأليف هذا الشرح يوم الإثنين في سبعة خلت من شهر رجب المضاف إلى خالق الثقلين، سنة ألف ومائتين وثمانية وستين من هجرة المصطفى سيّد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله وصحبه أجمعين الطيبين الطاهرين، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

فهرس المحتويات

MIR'ĀT AL-'IRFĀN WA LUBBUH

ŠARḤ RISĀLAT

((MAN 'ARAFA NAFSAHU FAQAD 'ARAFA RABBAHU))

BY

Al-Sheikh Ahmad ben Sulaiman Al-Arwadi

(D.1275H.)

EDITED BY

Dr. Assem Ibrahim Al-Kayyali

